الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة

المكتبة العربية
التأليف

تاريخ اللغة العربية في مصر

تأليف

دكتور أحمد مختار عمر

الناشر
الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
القاهرة
١٣٩٠هـ — ١٩٧٠م

الجمهورية العربية المتحدة

وزارة الثقافة

المكتبة العربية

تاريخ اللغة العربية في مصر

تأليف

دكتور أحمد مختار عمر

الناشر

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

القاهرة

١٣٩٠هـ — ١٩٧٠م

تاريخ اللغة العربية
في مصر

المكتبة العربية

تصدرها

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

بالاشتراك مع

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

وزارة الثقافة

المحتـــوى

الصفحة

مقدمة

قصة اللغة العربية فى مصر من القصص الشائقة التى تستحق التسجيل ، وتغرى بالدرس . وهى — من ناحية ثانية — قصة لم تبذل الجهود الكافية — حتى الآن — لتحليلها ، ورصد حركاتها على الرغم من قدمها وطول العهد بها . وهى — بالإضافة إلى هذا — قد اختلطت بكثير من الشوائب لارتباطها من ناحية بانتشار الإسلام ، وما أكثر ما قيل عنه إن صدقا أو كذبا ، ومن ناحية أخرى باللغة القبطية ، وما أكثر ما بولغ فى تصوير أثرها على اللغة العربية سواء فى ناحية الإيجاب أو السلب .

وأخطر فترة فى تاريخ اللغة العربية فى مصر ، هى تلك التى تبدأ مع الفتح العربى (عام ٢٠ هـ = ٦٤٠ م) حين كانت اللغة القبطية ماتزال لغة حية يتكلمها عامة الشعب فى طول البلاد وعرضها — وتمتد لتغطى قرابة ثلاثة قرون أخذ ظل اللغة القبطية ينحسر فيها عن البلاد رويدا رويدا إلى أن تلاشى من الوجود أو كاد .

ومن أجل أهمية تلك الفترة التى سبقت أو تلت مباشرة استقرار اللغة العربية فى مصر ، وعمق الخط الذى حفرته على عربية مصر رأيت أن أخصها بهذا البحث ، وأفردها بالحديث . وقد راعيت فيما كتبت أن أتجنب التفصيلات والتشعيبات الكثيرة بقدر المستطاع ، والتزمت بساطة العرض ، ووضوح الفكرة ما أمكن ، حتى يفهمنى القارئ العادى ، ويستفيد من البحث المتخصصون وغير المتخصصين على السواء .

ولأغطى الموضوع من جميع أطرافه ، رأيت أن أقسم البحث إلى تمهيد وبابين . أما التمهيد فقد تناولت فيه — باختصار — تاريخ اللغة العربية فى

مصر قبل الفتح الإسلامى ، وأثر اللغة المصرية عليها . وأما الباب الأول فقد عالجت فيه مراحل الصراع بين اللغتين المصرية والعربية ، والعوامل التى تدخلت فى كل مرحلة فى جانب أى منها أو ضده ، والنتائج التى انتهت إليها كل مرحلة . وقد سرت بالصراع إلى آخر مراحله ، فلم أتوقف إلا حين خلا الميدان للغة العربية وأصبحت وحدها اللغة العامة المشتركة لجميع المواطنين على السواء . وأما الباب الثانى فقد تناولت فيه بالإيضاح خصائص عربية مصر فى ذلك الوقت ، والعوامل المختلفة التى تدخلت حينذاك لتطبعها بطابعها ، أو تصبغها صبغة معينة . واستقيت المادة التى حللتها فى هذا الباب من الوثائق وأوراق البردى التى اكتشفت مؤخرا فى أماكن مختلفة من مصر ، ومن الكتب التى كتبها مؤلفون أقباط عاشوا خلال تلك الفترة ، وسجلت كتبهم خصائص أسلوبية معينة ، وأخيرا من كتب الأدب والتاريخ المختلفة التى حفظت لنا بطونها نماذج لكتابات ذلك العصر .

وأنهيت البحث بخاتمة بينت فيها مدى التأثير المتبادل بين القبطية والعربية. وأرجو أن يكون هذا البحث حلقة فى سلسلة بحوث أخرى تتناول — من ناحية — عربيات البلاد العربية فى أولى أيامها — أو البلاد التى كانت عربية — وصراعها مع اللغات المحلية التى صادفتها حينذاك ، ومن ناحية أخرى مراحل تطور اللغة العربية فى كل بلد على حدة عبر القرون .

والله الموفق

د . أحمد مختار عمر

تمهيد

اللغة العربية في مصر
قبل الإسلام

لم تكن اللغة العربية غريبة على مصر حين جاء الإسلام إليها ، فقد كان لها هناك تاريخ طويل يمتد عدة قرون قبل ظهور الإسلام ، وربما قبل ظهور المسيحية أيضا ، حين كانت وفود القبائل العربية تقصد مصر إما للتجارة أو الاستقرار .

فمن ناحية التجارة ، أشار المؤرخون إلى أنه كانت هناك خطوط تجارية برية وبحرية تصل بين مصر والجزيرة العربية . وتفيد المصادر اليونانية واللاتينية(١) وغيرها أن مدينة غزة كانت فى ذلك الوقت ميناء تجاريا هاما ، ومركزا يلتقى فيه التجار ورجال الأعمال لعقد الصفقات التجارية . وكان التجار العرب يقدمون إليه لبيع ما عندهم من حاصلات اليمن وجنوب الجزيرة العربية وشراء مايلزمهم مما يرد على هذه المدينة من البحر من حاصلات اليونان وإيطالية ومصر وغيرها . وتشير إحدى الوثائق(٢) التى يرجع تاريخها إلى عام ٢٦٣ ق.م إلى وجود علاقات تجارية بين المصريين والعرب فى تلك الفترة النائية . ومن الثابت كذلك أن عمرو بن العاص زار مصر قبل الفتح الإسلامى بوصفه تاجرا ، وذهب إلى الدلتا ومن بعدها إلى الإسكندرية (٣) ، وأن خبرته بالبلاد المصرية هى التى جعلته يفكر فى غزوها ويغرى الخليفة بذلك ، وهى التى سهلت له عملية الفتح .

وأما بالنسبة للهجرات العربية بقصد الاستقرار ، فقد كانت هناك كثير من الموجات دفعت بها بلاد العرب إلى مصر فى العصور الفرعونية .

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام . تأليف جواد على ١٣٢/٨ .

(٢) المرجع السابق ٦٧/٨ و٦٨ .

(٣) الكندى : الولاة ص ٦ — ٧ طبعة بيروت ١٩٠٨ ، وانظر تاريخ مصر الإسلامية لشيال ص ٥ وما بعدها .

وكان طريق سيناء قنطرة ثابتة مفتوحة للهجرات منذ القدم . ومن هذه الهجرات ما كان يؤخذ فيه رأى حاكم مصر ويتم بموافقته . وقد أشار المؤرخون إلى سلسلة من تلك الهجرات أخذت مكانها قبل الفتح الإسلامى، ومن بينها :

١ - هجرة قبائل كهلانية من عرب الجنوب ذات أصل قحطانى استقرت فى الجزء الشمالى الشرقى من مصر . وقد تم ذلك مع مطلع المسيحية(١).

٢ - هجرة قبائل من « طيء » (فرع كهلانى آخر من المجموعة الجنوبية) كان من أهمها قبيلتا لخم وجذام اللتان استقرتا فى إقليم الشرقية(٢) .

٣ - قبيلة « بلى » التى دخلت مصر قبل الإسلام واستوطنت مابين القصير وقنا . وكان عليهم الاعتماد فى نقل التجارة الهندية . وقد قدم وفد منهم إلى الرسول وأسلموا (٣) .

٤ - هجرة بطون من خزاعة ، وهم فرع من الأزد خرجوا فى الجاهلية إلى مصر والشام لأن بلادهم أجدبت .

٥ - استقرار بعض الجماعات العربية قبل الإسلام فى شرق الدلتا .

٦ - وقد أشار المؤرخون اليونان بما فيهم استرابو (٦٦ ق.م) وبلينيوس (٧٠ م) إلى أن عدد العرب فى عهدهم قد تضاعف على الضفة الغربية من البحر الأحمر حتى شغلوا كل المنطقة بينه وبين نهر النيل فى أعلى الصعيد . وكان لهم جمال ينقلون عليها التجارة والناس بين البحر الأحمر والنيل (٤) . وقد وصف استرابو كذلك مدينة قفط **Koptos** بأنها مدينة

---

(١) عباس عمار : **The People of Sharqiya.**
(القاهرة ١٩٤٤) ٢١/١ .

(٢) المرجع السابق ٢٣/١ .

(٣) المرجع السابق ٢٤/١ .

(٤) انظر « البيان والإعراب » ص ٨٩ .

واقعة تحت حكم العرب(١) ، وصرح بأن نصف سكانها يتكونون من أولئك العرب(٢) .

٧ – ذكر هيرودوت أن (٣) الأقسام الشرقية من مصر بين سواحل البحر الأحمر ونهر النيل كانت مأهولة بقبائل عربية .

٨ – فى عهد عمر بن الخطاب – بعد فتح الشام وقبل فتح مصر – هاجرت بعض القبائل من غسان ولخم وجذام وعاملة – التى كانت تدين بالمسيحية – إلى مصر ، واستقرت هناك فى الجزء الشمالى الغربى من «سيناء» . وقد منحهم الإمبراطور الرومانى حينذاك إقطاعية «تنيس» (صان الحجر)(٤) وقد قابلت النجدة التى أرسلها عمر بن الخطاب عبر وسط سيناء لمساعدة عمرو جمعا هائلا يبلغ نحو ثلاثة آلاف ، وحين سألوهم عرفوا أنهم من عرب غسان ولخم وعاملة . (٥)

وبالإضافة إلى هذا فإن الوثيقة السابق الإشارة إليها ، والتى يرجع تاريخها إلى عام ٢٦٣ ق.م تفيدنا أنه كانت توجد فى ذلك الوقت المبكر جالية عربية كبيرة مكونة من القبائل التى هاجرت من جنوب الجزيرة العربية واستقرت فى مصر . وإنه لمن الأهمية بمكان أن نذكر هنا أن لغة هذه الوثيقة تبدو قوية الصلة باللغة العربية ، مما يدل على أن هؤلاء العرب كانوا يكوّنون جزيرة لغوية فى مصر ، وأن هذه الجالية ظلت مخلصة لقوميتها محتفظة بأبجديتها تكتب بها وتعتز بتراثها . والوثيقة قصيرة ، ولكنها ذات أهمية كبيرة لأنها

(١) انظر دائرة المعارف الاسلامية مادة Kibt ص ٩٩١ (طبعة أولى) . والبيان والاعراب للمقريزى ٨٩ .

(٢) عروبة مصر من قبائلها ، للأستاذ مصطفى كامل الشريف ص ٢٢ . (المطبعة العالمية سنة ١٩٦٥) ومصر العربية الإسلامية للدكتور على حسن الخربوطلى ص ١٥ .

(٣) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام ٧/٢٥ و ٢٦ .

(٤) المقريزى : البيان والاعراب ص ٩٠ – ٩١ (طبعة القاهرة ١٩٦١) .

(٥) عروبة مصر من قبائلها ص ٢٣ .

تحدثت عن وجود العرب الجنوبيين بمصر فى ذلك العهد السحيق ، وعن وجود علاقات تجارية ربطت بين مصر وجزيرة العرب من البر والبحر. وهى تتحدث أيضا عن رجل اسمه «زيد بن زيد ايل» اعترف بوجود دين عليه وواجب هو توريد وتزويد بيوت آلهة مصر بالمرّ وقصب الطيب. ومن الكلمات التى وردت فى هذه الوثيقة ، والتى يمكن بسهولة ردها إلى أصل عربى أوسامى الكلمات «ديْن» التى استعملت فى نفس معناها العربى ؛ و «نفقس» التى تعنى ثروته أو نفقته من الأصل الثلاثى «نفق» ، و «محرمهى» التى تعنى الحرم ؛ و «رثد» التى تعنى رصد أو خصص.

وعلى أى حال فمن الطبيعى أن يكون قد نشب نوع من الاحتكاك فى ذلك الوقت بين اللغتين العربية والمصرية ، وأن يكون قد حدث بينهما قدر ما من التبادل . ويبدو أن آثار كلتا اللغتين على الأخرى كانت قوية لدرجة أنها خلقت تشابها أو تقاربا بين اللغتين أدى ببعض اللغويين المحدثين أن يزعموا وجود قرابة بين اللغتين ، أو بين المجموعتين السامية والحامية (١) (من المجموعة السامية اللغة العربية ومن المجموعة الحامية اللغة المصرية القديمة). ولكن الحقيقة أن هذا التشابه سببه ماحدث من اختلاط بين الساميين والمصريين فى العصور السحيقة . وممن حاول اكتشاف العلاقة بين اللغات السامية والحامية المستشرق المشهور أوليرى (دى لاسى) الذى كتب بحثا حاول فيه أن يبين أوجه الشبه بين العائلتين اللغويتين .(٢)

وقد كان نفوذ اللغة المصرية (أو اللغات المصرية إذا أردنا بهذا المصطلح مايشمل اللغة اليونانية التى كانت صاحبة نفوذ فى مصر فى تلك الفترة)

---

(١) انظر Irach Jehangier Sorabji : Elements of the Science of Language, Calcutta, 1932.

(٢) انظر مقدمة كتاب Characteristics of the Hamitic Languages.

على اللغة العربية كبيرا من ناحية المفردات . فهناك كلمات مصرية كثيرة دخلت اللغة العربية وأصبحت ينظر إليها على أنها من اللغة الأدبية النموذجية . من هذه الكلمات ألفاظ نحو « قبس » التى وردت فى القرآن الكريم ، و«صداع» ، و«مشط» التى وردت فى الحديث النبوى : الناس سواسية كأسنان المشط ، وكلمة « برْدى » التى وردت فى شعر الأعشى .

وقد ذكر السيوطى(١) — إلى جانب ذلك — قائمة من الكلمات التى وردت فى القرآن الكريم ولها — على ما يزعم — أصل قبطى . ومما ذكره فى هذا الخصوص قوله : وفى قوله تعالى ولات حين مناص ، أى فرار بالقبطية . وفى قوله تعالى بضاعة مزجاة أى قليلة بالقبطية . وحكى الكرمانى وغيره فى قوله تعالى : فناداها من تحتها أى بطنها بالقبطية . وفى قوله تعالى فى الملة الآخرة أى الأولى بالقبطية .. وواضح أن قائمة السيوطى لا يمكن التسليم بها مطلقا ولذا فنحن لا نعطيها أى اعتبار .

وهناك قائمة أخرى كبيرة لكلمات ذات أصل يونانى . ولكن أحداً لا يمكنه أن يقطع هل كان انتقال هذه الكلمات إلى اللغة العربية قد تم فى مصر أو فى سورية .

وخلاصة القول أن اللغة العربية كانت تتكلم فى مصر فى فترة ماقبل الإسلام بين أبناء الجاليات العربية وعلى ألسنة التجار العرب وأن تبادلا حدث بين اللغتين المصرية والعربية ، أدى إلى ترك آثار من كلا الجانبين على الآخر ولكن دون أن يفقد أى منهما شخصيته .

(١) المتوكل فيما ورد فى القرآن باللغة الحبشية والفارسية .... ص ١٢ .

الباب الأول

استيطان اللغة العربية في مصر

الفصل الأول

الصراع بين اللغتين

نظرة عامة

لقد ظهر الصراع الحقيقي بين اللغتين العربية والمصرية — والتي سنسميها منذ الآن باللغة القبطية (١) — بشكل واضح بعد الفتح الإسلامي لمصر . فقد حدثت إذ ذاك معركة كبيرة بين اللغتين انتهت بهزيمة كاملة للغة القبطية ونصر مبين للغة العربية . ولم يحدث هذا — بالطبع — دفعة واحدة ، وإنما خطوة بعد خطوة واستغرق فترة طويلة بالمقارنة بما حدث فى أماكن أخرى من العالم الإسلامي .

وقد كانت هزيمة اللغة القبطية نتيجة لأسباب متعددة عملت كلها فى صالح اللغة العربية ، كما أن تأخير هذه الهزيمة يمكن أن ينسب — من ناحية أخرى — إلى عقبات معينة عطلت التقدم السريع للغة العربية .

وقبل أن نناقش هذه الأسباب وتلك العقبات نحب أن نمهد بحديث قصير عن العوامل الرئيسية التى تتحكم فى صراع اللغات ، والتى يسرى مفعولها على أى لغتين يحدث احتكاك بينهما . هذه العوامل هى :

---

(١) القبط — وكذلك الأقباط — اسم أعطاه العرب للمصريين حتى من قبل الفتح الإسلامى ، وفى الحديث النبوى : «استوصوا بالقبط خيراً» . وقد اشتهر نوع من الثياب منذ الجاهلية باسم القبطية وجمعه العرب على «قباطى» .

وتذهب المراجع العربية القديمة فى تفسير كلمة «قبط» مذهباً أسطورياً فتزعم أنها مشتقة من اسم ملك لمصر القديمة كان يدعى قبطيم بن مصرايم بن مصر بن حام بن نوح .

أما المحدثون فلهم فى تفسيرها آراء عدة منها : =

١ ــ العامل السياسى .

٢ ــ العامل الاقتصادى .

٣ ــ العامل الدينى .

٤ ــ عامل التفوق اللغوى (١) .

وقد لعبت هذه العوامل كلها دورا هاما فى صالح اللغة العربية وتعاونت فيما بينها لتنهى حياة اللغة القبطية فى مصر .

فإذا نحن نظرنا إلى العاملين السياسى والاقتصادى وجدنا أنهما كانا

=(١) أنها اشتقت من مدينة Koptos (قفط) .

(٢) أنها تعريف لكلمة Jacobites (اليعاقبة) . وبعض المراجع تطلق على المصريين الأقباط الذين وجدوا أثناء الفتح اسم اليعاقبة ، وهم الذين غلب عليهم فيما بعد اسم الأقباط الأرثوذكس ، وكانوا يكونون أغلبية فى مصر .

(٣) أنها تحريف للكلمة اليونانية Koptoi التى كان يطلقها اليونانيون على المصريين لأنهم كانوا يجرون الختان على أولادهم .

(٤) وأقرب الآراء إلى الصحة أن الكلمة تحريف للاسم اليونانى لمصر يبنو هو Koptoi ويبدو على كل حال أن هذه الكلمة استعملت أول ما استعملت وأريد بها غير المسلمين من المصريين ، من غير نظر إلى عقيدة معينة ، ثم بمرور الوقت أصبح اللفظ علماً على المسيحيين المصريين ، ولم يعد يتضمن أصحاب أى ديانة أخرى .

وتعتبر اللغة القبطية المرحلة الأخيرة للغة المصرية القديمة . وأهم ما يميزها عنها :

(١) أنها كتبت بأبجدية يونانية بعد أن كانت تكتب بحروف معظمها ديموطيقية .

(ب) أنها دخلتها مفردات وتعبيرات يونانية .

(ج) أنها أبدلت بعض الأصوات فى الكلمات .

(د) أنها كتبت بالحروف الساكنة والمتحركة (الحركات) بعد أن كانت لا تذكر الحروف المتحركة .

(هـ) أنها اشتملت على كلمات غير موجودة فى المصرية القديمة وتركت كلمات موجودة فى المصرية القديمة .

(انظر : حضارة مصر فى العصر القبطى لمراد كامل ص ٦٩) .

(١) انظر J. Vandryes : Language ص ٢٨١ — ٢٨٢ .

يعملان فى صالح اللغة العربية . فمما لاشك فيه أن القوة كانت فى أيدى العرب الذين بذلوا أقصى وسعهم لتعريب البلد ونشر الإسلام . وقد أدت عمليات التعريب ونشر الإسلام إلى نتائج اقتصادية هامة كان لها أثرها فى دعم اللغة العربية ورفع شأنها فى مصر . وقد كان من أهم الخطوات التنفيذية التى خطاها العرب ، والتى قوت جانبى الإسلام واللغة العربية فى مصر مايأتى :

١ — إحلال اللغة العربية محل اللغة اليونانية أو القبطية فى الدواوين وفى المكاتبات الرسمية .

٢ — تهجير عديد من القبائل العربية إلى مصر بقصد الإقامة الدائمة .

٣ — إحلال بعض المسلمين محل الأقباط فى الوظائف الرسمية .

٤ — فرض أنواع مختلفة من الضرائب على الأقباط .

فإذا انتقلنا إلى العامل الدينى ، نجد من الثابت أنه لم يكن هناك ضغط مباشر على الأقباط ليعتنقوا الإسلام — إلا ما ندر — ولكننا نجد من الثابت أيضا أنه كانت هناك امتيازات معينة يتمتع بها المسلمون دون الأقباط مثل تفضيلهم عند شغل الوظائف القيادية بالإضافة إلى عامل الهيبة الذى يتمتع به المسلمون باعتبارهم الطبقة الحاكمة . وقد أغرى هذا وذاك مجموعة من الأقباط أن يعتنقوا الإسلام لينعموا بالمساواة فى ظله . ومن ناحية أخرى فإننا نجد عدداً آخر يعتنقون الإسلام طواعية واختيارا مدفوعين بما يحتويه من تعاليم صادقة وروح جديدة . ومن البديهى أنه إذا اعتنق شخص الإسلام تحت حكم عربى فإنه سيحاول أن يحاكى المسلمين فى كل تصرفاتهم .. سيذهب إلى المسجد ، وسيقرأ القرآن ، وسيصلى باللغة العربية . وباختصار سيعيش عيشة إسلامية كاملة .

وعامل الإسلام من الناحية اللغوية يعتبر ذا أهمية قصوى . وقد كان

من الواضح جدا ارتباط تقدم اللغة العربية وانتشارها بتقدم الإسلام وانتشاره فى كل الأقطار المفتوحة على السواء . كذلك كان من الواضح أن الأماكن النائية أو التى لم ينتشر فيها الإسلام بسرعة ظلت اللغة القبطية فيها حية لمدة أطول من غيرها . وقد كان اكتساب الأقباط الذين أسلموا للغة العربية أسرع من اكتساب أولئك الذين لم يسلموا لها . ولهذا فنحن نتفق مع المستشرق الشهير دى لاسى أوليرى الذى علق أهمية كبيرة على هذا العامل بقوله « كان انتشار الإسلام بلا شك عاملا من عوامل إحلال اللغة العربية محل القبطية » (١) .

وقد حاول بعض الكتاب الذين عالجوا انتشار الإسلام فى مصر أن يصلوا إلى نتيجة معينة هى أن الإسلام قد انتشر فى مصر بالقوة . واعتمد هؤلاء فيما اعتمدوا — ومعظمهم من المستشرقين — على كتاب عنوانه « سير الآباء البطاركة » بقلم سويرس بن المقفع ، وهو مسيحى يعقوبى شغل منصب أسقف فى كنيسة أشمونين نحو عام ٩٨٥ م . وهذا الكتاب — فى الحقيقة — ملىء بالوقائع المزورة والأكاذيب الفاضحة ، ولذا طعن فى صحته كثير من العلماء فى الشرق والغرب . وممن تشكك فى كتابات هذا الرجل : ورأى ضرورة التثبت منها **Nabia Abbot** مؤلفة كتاب : **The Kurrah Papyri** وتنبهت هذه الكاتبة كذلك إلى حقيقة هامة بالنسبة لما كتب عن الأمويين إذ قالت ما معناه : إن معظم المراجع التى تمدنا بمعلومات عن الأمويين ونظام حكمهم كتبها أناس أعداء لهم مثل العباسيين والمسيحيين من أمثال سويرس بن المقفع (٢) . كذلك حذر **Bell** فى مقاله **The Administration of Egypt** من الثقة الكبيرة فى المصادر القبطية

---

(١) انظر : **Notes on the Coptic Language** ص ٢٤٤ مقال بمجلة **Orientalia** عام ١٩٣٤ .

(٢) انظر ص ٥٧ .

حيث إن التعصب الديني قد لعب دورا كبيرا فيها .وذكر لنا مثالا من الأخطاء التي وقعت فيها المراجع القبطية وكشفت عنه أوراق البردى(١).

إننا لاننكر أنه وقعت هناك فى تلك الفترة السحيقة بعض مصادمات بين المسلمين والأقباط ، ولكننا بسهولة نستطيع أن نردها إلى أسبابها الحقيقية . فبعض هذه المصادمات تم على أيدى المتطرفين من كلا الجانبين ، أو على أيدى العوام الذين تغلب عليهم حدة العاطفة دائما . وحتى فى هذه المصادمات التى وقعت بين الحكام والأقباط فإننا نجد التفسير بسهولة ويسر . لقد كانت هذه المصادمات إما رد فعل لإثارات قام بها الأقباط — كما سنوضح فيما بعد — وإما عمليات اضطهاد وقتية قام بها بعض الحكام الظالمين(٢) ، وإما نتيجة للصراع الداخلى بين الأقباط وخاصة بين أبناء الطوائف المختلفة الذى سبب للحكومة متاعب جمة . ومن أمثلة ذلك الصراع ما ذكره يحيى بن سعيد الأنطاكى (٣) فى قوله : انقسم أهل مصر قسمين ، وكذلك أهل تنيس وتحزبوا حزبين ، وصار حزب من الكهنة والعلمانيين مع البطريرك وحزب منهم عليه . وكان كل فريق منهم يصلون فى كنيسة مفردة حتى كان الأب لا يكلم ابنه ولاالامرأة تخاطب بعلها .. ويستعين كل فريق منهم على الآخر بالسلطان . وخرج جماعة من النصارى .. من أهل تنيس إلى الإخشيد ساعين به رافعين إليه . ثم ذكر أنه عقب هذه الوشاية أرسل الإخشيد من نهب إحدى الكنائس . كذلك صرح « ترتون » فى كتابه :

---

(١) انظر ص ٢٨٤:

(٢) من أمثلة ذلك ما ذكره ابن تغرى بردى من اشتهار سليمان بن على بن عبد الله بن العباس (١٦٩ هـ) بهدم كنائس مصر وأعمالها ، وما ذكره سويرس بن المقفع عن عبد العزيز بن مروان أنه أمر بكسر جميع الصلبان التى فى مصر .

(٣) انظر تاريخ يحيى بن سعيد ص ٧١٥ — ٧١٦ المنشور فى :
Patrologia Orientalis, 1929-1932

« أهل الذمة فى الإسلام » بأن كثيراً من الظلم الذى لحق الأقباط مصدره أنفسهم ، ومرده الغيرة الدينية بين أتباع الدين الواحد . وقد أتبع ذلك بنماذج كثيرة للصراع بين الطوائف المسيحية وإيقاع كل منها بالآخر . وذكر سويرس ابن المقفع أن شماساً اسمه بنيامين كان يتولى الدس للنصارى عند الأصبغ ابن عبد العزيز بن مروان ويطلعه على أسرارهم . وذكر فى مكان آخر أنه فى خلافة المعتصم بن هارون الرشيد حصلت وقيعة بين رؤساء النصارى ، ودسوا بعضهم لبعض ، فأمر والى مصر على بن يحيى الأرمنى بهدم البيع أو دفع ثلاثة آلاف دينار .

والشيء الذى نحب أن نبرزه هنا ونجعله واضحاً هو أن الأقباط قد تمتعوا فى ظل الحكم الإسلامى بحرية دينية لم يجدوها من قبل ، وأنهم باشروا — سواء تحت الأمويين أو العباسيين — عباداتهم بحرية تامة . وكل ما كان يحرص عليه الحكام فى ذلك الوقت هو أن تترجم لهم دروسهم القبطية وصلواتهم ليتأكدوا أنها لا تحمل أى هجوم أو إهانة للإسلام . وقد عرف ذلك بوجه خاص أيام الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان الذى كلف أحد الشمامسة بترجمة الإنجيل إلى اللغة العربية ، وكان يبحث عن كتب النصارى ويأمر بترجمتها له . وقد اعترف ترتون فى كتابه « أهل الذمة فى الإسلام » بأن المسلمين بمصر منذ البداية اتجهوا إلى عدم احتلال أى كنيسة ، وعدم التدخل فى شئون الأقباط ، وبأن عمرو بن العاص نفسه لم يمد يده إلى أى شيء من أملاك الكنائس . وذكر أن أول كنيسة بنيت بالفسطاط أيام المسلمين كانت فى ولاية مسلمة بن مخلد (٤٧ — ٦٨ هـ) وأنه لما أنشأ عبد العزيز بن مروان حلوان سمح بإقامة كنيسة هناك ، ثم بنيت أخرى ، وبنى ديران .

ومن الثابت تاريخياً أن محمد بن طغج الإخشيدى — على عكس ما أشيع عنه — كان يحسن معاملة المسيحيين ، وكان يشارك فى أعيادهم ويحضر

احتفالاتهم الدينية . وقد ذكر المسعودى وصفاً لأحد هذه الاحتفالات فقال : « وقد حضرت سنة ٣٣٠ ليلة الغطاس بمصر والإخشيد محمد بن طغج أمير مصر فى قصره المعروف بالمختار فى جزيرة الروضة .. وقد أمر فأسرج فى جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل إلى جانب ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع .. » .

وضرب لنا سويرس بن المقفع أمثلة للاضطهاد الدينى الذى عاناه المصريون تحت حكم الرومان ، ومنها قوله عن شخص يدعى « أغاتون » : « وكان قساً فى الكنيسة ، وهو من أهل مريوط . كان فى زمن هرقل يتزيى بزى العلمانيين فى مدينة الإسكندرية ، ويطوف فى الليل يثبّت الأرثذكسيين المختفين ويقضى حوائجهم .. وإذا كان النهار حمل على كتفه قفة فيها آلا ت النجارين ، ويُظهر أنه نجار حتى لا يعترضوه المخالفون (كذا) » .

وقبل أن نترك هذا العامل نحب أن نشير إشارة خاطفة إلى أن كثيراً مما ألصقه المستشرقون بالإسلام من اتهامات فى هذا الخصوص مرجعه سوء قراءتهم أو التواء فهمهم للنصوص العربية وترجمتهم الخاطئة لمدلولها . وأكتفى هنا بأن أذكر اسم المستشرق الشهير B. Evetts محقق كتاب سويرس ابن المقفع السابق الإشارة إليه . لقد قرأ عبارة ابن المقفع « فأحصى جميع الرهبان .. وجعل عليهم جزية » — قرأها : فأخصى وترجمها إلى « **mutilated** » ورتب على ذلك نتائج كثيرة (١) .

فإذا نحن انتقلنا إلى العامل الأخير ، نجد أن تفوق أى لغة وتمتعها بالهيبة يرجع إلى قيمتها الذاتية ، وفى حالة اللغة العربية نجد قيمتها عظيمة ، وتفوق إلى حد كبير القيمة الذاتية للغة القبطية فى ذلك الوقت . فهى من ناحية لغة الحكام ، ومن ناحية أخرى لغة النبى . وهى بالإضافة إلى ذلك لغة حضارة عظيمة وثقافة تفوق أختها القبطية . ويشير « فندريس » فى كتابه « اللغة »

---

(١) انظر ١/١٥

إلى التفوق الذاتى الذى تتمتع به بعض اللغات، ومن بينها اللغة العربية، بقوله: « والقدرة على الانتشار التى نشاهدها فى بعض اللغات الهندية الأوربية أو السامية — كاللغة العربية مثلا— ترجع بلا شك إلى أسباب معقدة، ولكن القيمة الذاتية للغة لها فى ذلك نصيب ».

ويمكننا أن نقدر الفجوة بين اللغتين القبطية والعربية فى هذا الصدد إذا أخذنا فى الاعتبار الحقيقتين التاليتين :

أولا : أن اللغة العربية كانت قد انتشرت فى كثير من أنحاء العالم وتمثلت ثقافات وحضارات كثيرة مما أعطاها ميزة ضخمة وقيمة كبيرة. وبمرور الزمن ازداد هذا العامل قوة، فما أن جاءت العربية إلى معركتها الحاسمة مع القبطية حتى كانت قد أصبحت لغة ثقافة عالية.

ثانياً : أن اللغة القبطية فى فترة احتكاكها باللغة العربية كانت فى موقف ضعيف بشكل واضح. فقبل ذلك بمدة طويلة كانت اللغة القبطية قد وقعت فريسة للغة اليونانية التى أصبحت فيما بعد لغة الكتابة. وهذا يعنى أن الأعمال الكتابية الهامة كانت تكتب باليونانية لا القبطية، ويعنى بالتالى إضعاف اللغة القبطية لدرجة عظيمة.

ويقال كذلك إن لغة الثقافة فى مصر لم تكن القبطية، بل كانت السريانية التى كانت تستعمل بخاصة فى جامعة الإسكندرية العتيقة، والتى صارت مألوفة للدارسين بعد هجرة بعض الأساتذة السوريين إلى مصر وعملهم على نشر ثقافتهم.

ويقال أيضاً إن اللغة القبطية لم تكن وحدها لغة الحديث فى بعض أجزاء من مصر بما فيها الإسكندرية، وإنها كانت فى صراع دائم مع اللغة اليونانية على ذلك (١). بل أكثر من هذا يقال إن اللغة القبطية كانت لغة الحديث

(١) عبد المسيح : الأساس المتين فى ضبط لغة المصريين ص ٩٠ .

لعامة الشعب وغير المثقفين فقط ، وإن الطبقات الأرستقراطية كانت تفضل الحديث باللغة اليونانية (١) .

كذلك من الثابت أن الأقباط فى ذلك الوقت لم يكونوا غيورين بدرجة كبيرة على لغتهم حتى إنهم تخلوا عن أحرفهم الهجائية فى القرن الرابع أو الخامس الميلادى واختاروا أبجدية جديدة استعير معظمها من الأحرف اليونانية وأضيف إليها سبعة رموز من الكتابة الديموتيقية لتعبر عن أصوات لا وجود لها فى اللغة اليونانية (٢) .

ومن أجل هذا حين جاءت حركة الترجمة النشيطة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية وبلغت قمتها ، لم يجد الباحثون شيئاً ذا بال يستحق الترجمة من القبطية إلا ما ندر . ولا توجد إشارات إلى ترجمات من القبطية إلى العربية حتى نهاية القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، اللهم إلا ما يتعلق بالديانة المسيحية . وربما كانت الترجمة الوحيدة التى وصلنا نصها هى تلك التى قام بها سويرس بن المقفع وأصحابه فى القرن الرابع الهجرى ، والتى أطلقوا عليها اسم : « سير الآباء البطاركة » . وتأخذ دائرة المعارف الإسلامية (مادة قبط) برأى **Casanova** أن الترجمة العربية للأعمال القبطية لم تتم إلا فى أيام الفاطميين . وتذكر الدائرة أن الأدب القبطى لم يكن أدباً راقياً ، وأنه عاش فى شكل ترجمات معظمها من اليونانية ، مثل ترجمة العهد القديم والعهد الجديد وقصص حياة الأولياء والقديسين .

فإذا نحن أردنا أن نحلل هذه العوامل ، ونرتب تلك الأحداث ترتيباً

(١) انظر جاك تاجر : أقباط ومسلمون ص ٢٠٤ ، وانظر أيضاً : بهى الدين زيان : حياة النثر فى مصر إلى القرن الرابع الهجرى (رسالة دكتوراه بكلية الآداب جامعة القاهرة) ص ١٠١ – ١٠٢ ، وعبد الرزاق حميدة : الأدب العربى فى مصر ص ١٧ .

(٢) عبد المسيح : الأساس المتين ص ٥ – ٩ وانظر أيضاً ص ٧٦ من **A.C. Moorhouse** : **The Triumph of the Alphabet** وص ٤٧٠ من **D. Diringer : The Alphabet**

الفصل الثانى

المرحلة الأولى من الصراع

مرحلة المناوشة

تحدد هذه المرحلة بفترة ما بين الفتح الإسلامى (سنة ٢٠ هـ) ونهاية القرن الأول الهجرى (٧١٨ م) . وفيها وجد تبادل بين اللغتين العربية والقبطية وتأثير من كلا الجانبين على الآخر . وعلى الرغم من تأييد اللغة العربية بالعرب الفاتحين ، فقد كان ميزان القوى متعادلا لمعظم الوقت ، ولم تتمكن أى من اللغتين من إحراز نصر يذكر على الأخرى. وكانت الأسباب التى أدت إلى هذه النتيجة ما يأتى :

١ ـ حسن معاملة العرب للمصريين . فعلى عكس ما ذكره المؤرخون الأقباط تؤكد أوراق البردى ـ التى يرجع عهدها إلى الفتح الإسلامى والتى كشفت حديثاً ـ حسن معاملة العرب للأقباط ومسلكهم المشرف حيال أهل الذمة . ولدينا وثيقتان بهذا كشفهما البروفسر جروهمان يرجع تاريخهما إلى عام ٢٢ هـ = ٦٤٢ م . وإحدى الوثيقتين مكتوبة باللغة اليونانية وقد كتبها الشماس يوحنا مسجل العقود وألحق بها نص آخر باللغة العربية . ويقول النص العربى : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أخذه عبد الله بن جابر وزملاؤه المحاربون من النعاج للذبح فى هيراكليوبولس » . لقد أخذنا من أحد وكلاء تيودوراكس النجل الثانى لآباقيرس ومن نائب خريستوفورس أكبر أنجال آبا قيرس خمسين نعجة للذبح ، وخمس عشرة نعجة أخرى . وقد أعطاها لإطعام رجال مراكبه وفرسانه وقوات مشاته . . . . . تحرر فى شهر جمادى

الأولى سنة ٢٢ وكتبه ابن حديد » ، وجاء فى ظهر الورقة ما نصه : « شهادة بتسليم التعاج للمحاربين ولغيرهم ممن قدموا البلاد وهذا خصما (كذا) عن جزية التوقيت الأول » . وقد علق جروهمان على النص بقوله : « إن هذه المعاملة إزاء شعب مغلوب قلما نراها من شعب منتصر » . وقد كتب ميخائيل السورى بطريرك اليعقوبيين فى أنطاكية يقول : « إن رب الانتقام استقدم من المناطق الجنوبية أبناء اسماعيل لينقذنا بواسطتهم من أيدى اليونانيين .. وقد أصابنا خير ليس بالقليل بتحررنا من قسوة الرومان وشرورهم ، ومن غضبهم وحفيظتهم علينا . هذا من جهة . ومن جهة أخرى سادت الطمأنينة بيننا (١) » . ووصف الأسقف المؤرخ سويرس بن المقفع شعورهم بقوله: « كانت الشعوب فرحين مثل العجول الصغار إذا حل رباطهم وأطلقوا على ألبان أمهاتهم » . ويعلق الدكتور جاك تاجر على وصف سويرس بن المقفع بقوله : « وسويرس على حق فى وصفه لأن الأقباط لم يعاملوا هذه المعاملة اللينة من مدة طويلة . أضف إلى ذلك أن العرب أثناء ولاية عمرو لم يحاولوا أن يضغطوا على الأقباط ليعتنقوا الإسلام ولم يضطهدوهم (٢) » .

٢ — استمرار استعمال اللغة اليونانية (أو القبطية) بوصفها لغة رسمية حتى عام ٨٧ هـ = ٧٠٦ م عندما أصدر والى مصر إذ ذاك وهو عبد الله بن عبد الملك بن مروان أوامره بإحلال العربية محلها (٣) . وفى التوعزل رئيس الديوان القبطى وكان اسمه أثناسيوس وحل محله ابن يربوع الفزارى الحمصى . وتشير المصادر العربية إلى أن اللغة الرسمية إذ ذاك كانت القبطية وحدها ، فى حين أن الباحثين الأوربيين يرون أنها كانت اليونانية فقط . والذى يبدو لى أن كلتا اللغتين كانت مستعملة فى الكتابة فى ذلك الوقت ،

---

(١) جاك تاجر : أقباط ومسلمون ص ١٨ ، وانظر أيضاً ص ٦١ .

(٢) المرجع نفسه ص ٧٣ ، انظر أمثلة أخرى فى (المجتمعات الإسلامية فى القرن الأول) لشكرى فيصل ص ١١٩ وما بعدها .

(٣) المقريزى : الخطط ١/ ٩٨ ، والولاة للكندى ص ٥٨ — ٥٩ .

اليونانية بوصفها اللغة الرسمية فى الدواوين والمصالح الحكومية ، والقبطية بوصفها لغة العامة وكانت تكتب بها عقودهم وخطاباتهم ووثائقهم . ويتضح من بعض الوثائق المكتوبة بين سنتى ٥٦ هـ = ٦٧٥ م و ١٥٩ هـ = ٧٧٥ م أن كلتا اللغتين كانت تستعمل جنباً إلى جنب ، وأحياناً مع اللغة العربية . والنسبة الكبرى فى مجموعة من هذه الوثائق كانت باللغة القبطية (٨٥ ٪ بالقبطية و ٩ ٪ باليونانية و ٦ ٪ بالعربية (١)) ولكن هناك وثائق أخرى كتبت باليونانية فقط . ولم يكن من الممكن – بالطبع – أن يتم تعريب الدواوين بين يوم وليلة؛ ولهذا فنحن نقترح السنوات العشر الأولى من القرن الثانى الهجرى أو نحوها حينما أصبحت اللغة العربية لغة المصالح الحكومية إما بالكلية ، أو كلغة أولى فى الوثائق ذات اللغتين . ومع ذلك فقد عثر على وثيقة من وثائق البردى كتبت باللغتين اليونانية والعربية ويرجع تاريخها إلى عام ٢٢ هـ (٢)، أى نحو ٦٥ عاماً قبل المحاولة الرسمية لتعريب الدواوين فى مصر . ومن تلك الوثيقة يمكننا أن نقول إن استعمال اللغة العربية فى الوثائق الرسمية (ولكن كلغة ثانية) كان قد بدأ إن لم يكن مع الفتح الإسلامى فبعده بقليل . وأول وثيقة كتبت كاملة باللغة العربية يرجع تاريخها إلى عام ٩٠ هـ = ٧٠٩ م .

٣ – أما العامل الثالث من عوامل التعادل بين اللغتين العربية والقبطية خلال القرن الأول الهجرى فيرجع إلى وضع الأقباط الوظيفى فى الدولة . فقد حل الأقباط فى إدارة البلاد محل الروم الذين غادروا مصر ، والذين كانوا يشغلون كثيراً من الأعمال فيها ، كما ظلوا فى وظائفهم العامة كما كانوا قبل الفتح سواء بسواء ، فكان منهم حكام المحافظات ورؤساء الدواوين وصغار الموظفين . ومن هؤلاء عامل يدعى ميناس كان هرقل قد ولاه أعمال المنطقة الشمالية من البلاد واستبقاه المسلمون فى عمله . وهناك آخر اسمه شنودة وكلت إليه

---

(١) انظر ص ٨ من : P.E. Kahle : Bala'izah (لندن ١٩٤٥) .

(٢) سبق نص الوثيقة .

إلى ١٠١ هـ = ٧١٩ م) ، أوامره بإحلال المسلمين أو العرب محل الأقباط . ونتيجة لذلك ، نزعت موازيت القبط عن الكور واستعمل المسلمون عليها(١) . ولكن يبدو — على أى حال — أن هذه الحركة لم تكن شاملة فى أى عصر من عصور التاريخ بدليل أننا نجد من بين أسماء محصلى الضرائب فى القرن الثالث الهجرى أسماء قبطية من مثل مينا بن شنودة وسويرس بن زكريا ويوحنا بن ميناء . ومن الثابت كذلك أن رؤساء المالية ظلوا أقباطاً طوال العصر الأموى .

٤ — كان عدد العرب قليلا طوال هذا القرن إذا قيس بعدد السكان الأصليين . فقد كان عدد قوات الجيش العربى الفاتح بأمداده المتعددة يتراوح بين اثنى عشر ألفاً وستة عشر ألفاً يعيشون على العطاء الذى تصرفه الحكومة لهم . وبعد الفتح نظمت لهم خطط فى الفسطاط ونزلت كل قبيلة خطة ، أى جهة معينة أو قسما من أقسامها ، وعرف كل قسم باسم القبيلة أو الجماعة التى نزلت فيه . ولم يخرج عن الفسطاط من جيوش الفتح إلا عدد قليل من القبائل مثل همدان التى نزلت فى الجيزة ، وعدد آخر نزل بالإسكندرية . وفى خلافة معاوية كان بالفسطاط أربعون ألف عربى ، وفى الإسكندرية اثنا عشر ألفاً زيدت إلى سبعة وعشرين ألفاً بعد شكوى قائدها من قلة العدد . ومع أننا نعترف بأن أرقام هؤلاء الجنود لا تدل على عدد العرب الحقيقيين فى مصر لأن المصادر التاريخية ربما أغفلت ذكر جماعات عربية استوطنت مصر أيام الفتح غير هؤلاء الجنود ، وذلك مثل قبيلة « بلى » التى نقلت بعض بطونها من الشام إلى مصر فى أيام عمر بن الخطاب وأقامت بالصعيد (٢) ، فإنه من الواضح أنه حتى مع مضاعفة التقدير فإن عدد العرب

---

(١) كان القطر المصرى مقسما إلى أجزاء كل منها يسمى « كورة » ، وعلى رأسها كان صاحب الكورة . وبمساعده كان يحمل اسماً يونانياً هو « جسطل » أو « مازوت » . ويذكر الدكتور مراد كامل أن كلمة « مازوت » لاتينية أو يونانية الأصل وأن معناها « قاضى » . (ص ٧١) .

(٢) انظر البيان والإعراب ص ٩٧ .

لن يبلغ فى أى فترة من فترات هذا القرن عشر معشار عدد السكان الأصليين الذين يزيدون فى أقل تقدير على سبعة ملايين نسمة (١) .

وبالإضافة إلى القلة العددية كانت هناك أوامر مشددة على الجنود ألا يستكينوا إلى الراحة ، وأن يظلوا فى وضع استعداد دائم ، أو على حد تعبير عمرو بن العاص « واعلموا أنكم فى رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم ، وتشوف قلوبهم إليكم وإلى دياركم معدن الزرع والمال والخير الواسع (٢) . كذلك أمروا ألا ينزلوا الريف إلا فى وقت الربيع لينالوا من « خيره ولبنه وخرافه وصيده » وليسمنوا خيولهم ويطعموها . ومن تحذيرات عمرو فى هذا الشأن : « ولا أعلمن أحداً قد أسمن نفسه وأهزل فرسه . واعلموا أنى معترض الخيل كاعتراض الرجال فمن أهزل فرسه من غير علة حططت من فريضته قدر ذلك » وقد روى ابن عبد الحكم عن عمر بن الخطاب أنه أمر مناديه أن يخرج إلى أمراء الأجناد ويسألهم أن يخبروا الرعية أن عطاءهم قائم وأن رزق عيالهم سائل فلا يزرعون . وروى ابن وهب

---

(١) تختلف المراجع فى تقدير عدد المصريين الذين كانوا بمصر أيام الفتح وليس هناك أى دليل على ترجيح أحد الآراء على الآخر . وقد قدرهم جرجس فيلوثاوس بثلاثين مليوناً (اللغة القبطية سنة ١٩١٦ ص ١٢) وقدرتهم دائرة المعارف الإسلامية بحوالى أربعة وعشرين مليونا (ص ٩٩٧ مادة Kibt) . وإذا أردنا أن نقدر عددهم بناء على مقدار الجزية الذى جمعه عمرو بن العاص صادفتنا صعوبة أخرى هى أن المراجع تختلف فى هذا المقدار على الوجه الآتى :

(أ) ذكر البلاذرى فى فتوح البلدان أن خراج مصر زمن الفتح كان ألفى ألف دينار أى أن من وجبت عليهم الجزية (وهم من عدا الأطفال والنساء والعجائز) كان عددهم مليون نسمة ، بواقع دينارين للفرد الواحد .

(ب) أما ابن عبد الحكم فى فتوح مصر فقد قدر عدد من وجبت عليهم الجزية بستة ملايين نسمة وكذلك فعل السيوطى فى حسن المحاضرة .

(جـ) ذكر المقريزى فى الخطط (١ / ١٣٦ ط لبنان) أن عدد من دفعوا الجزية كانوا ثمانية ملايين شخص .

(٢) انظر حسن المحاضرة (ط الشرقية) ١/٦٧ .

أن شريك بن سميّ الغطفى أتى عمرو بن العاص فقال : إنكم لا تعطوننا ما يكفينا ، أفتأذن لى فى الزرع ؟ قال عمرو : ما أقدر على ذلك. فزرع شريك من غير أمر عمرو فكتب عمرو إلى عمر يخبره بذلك فكتب إليه أن أبعث إلىّ به فبعث به إليه فقال له عمر : « لأجعلنك نكالا لمن خلفك » . وحيث كان معظم العرب يعملون كأفراد فى القوات المسلحة وينظر إليهم على أنهم غزاة فاتحون فإننا لا نتوقع قيام علاقات طيبة – لبعض الوقت – بينهم وبين الأقباط. أما العرب الذين لم يفدوا بوصفهم جنداً عاملين فكانوا قلة ، وتفرقوا فى البلاد ، فنزل بعض من « لخم » و « جذام » بالحوف الشرقى (١) ، وبعض من « بلى » بسوهاج واستقرت جهينة فى الصعيد ، وبعضهم نزح إلى الصحراء . ومن أشهر المناطق التى سكنتها القبائل الأولى كذلك الفيوم وبهنسا وبوصير وسخا وإتريب ومنوف وسمنود وطحا .

٥ – فى النصف الثانى من هذا القرن فرضت ضريبة على الرهبان لأول مرة ، وقد فرضها عبد العزيز بن مروان فى عام ٦٥ هـ = ٦٨٥ م وقدرها دينار عن كل فرد بحجة أنه ليس من العدل أن تدفع الطبقات الفقيرة الضرائب ويعفى منها الرهبان والمطارنة والبطاركة الذين يملكون ثروات ضخمة . واستناداً إلى ما ذكره المؤرخ القبطى سويرس بن المقفع ، فرض الأصبغ ابن عبد العزيز بن مروان (توفى عام ٨٦ هـ = ٧٠٥ م) – الذى كان نائباً عن والده عبد العزيز بن مروان فى حكم مصر خلال فترة ولايته – ضرائب على الرهبان الأقباط وأراضيهم ، وقبل عهده لم تكن هناك أى ضرائب مفروضة عليهم (٢).

---

(١) يشمل الحوف الشرقى القرى الواقعة على الجانب الشرقى من الوجه البحرى وبلبيس كان يشمل كل البلاد التابعة الآن لمحافظتى القليوبية والشرقية ، وما يقع إلى شرق مركز السنبلاوين وأجا وبلاد مركز ميت غمر بمحافظة الدقهلية .

(٢) يبدو أن الضريبة الأولى التى فرضها عبد العزيز بن مروان على الرهبان هى هذه الضريبة التى فرضها الأصبغ. أما إذا اختلفت فلعل الأولى كانت تقابل ما يسمى بالجزية أو ضريبة

كذلك قال سويرس بن المقفع إن الأصبغ أمر حكام المحافظات وموظفيها فى كثير من مدن مصر العليا والسفلى أن يعتنقوا الإسلام أو يغادروا وظائفهم . وقد كان من نتائج هذه السياسة ذات الشقين أن دخل كثيرون دين الإسلام، منهم « بيتر » حاكم الصعيد ، وأخوه « تيودور » حاكم مريوط وعدد لا يحصى من القسس وعامة الشعب .

ومن الطبيعى ألا يظهر أثر هذا العامل فى خلال تلك الفترة وأن تظهر نتائجه فى المرحلة التالية .

وباستثناء هذا المثال الواحد لم يكن هناك ضغط مباشر على الأقباط ليكونوا مسلمين ، وإنما كان عليهم أن يدفعوا نوعاً أو أنواعاً معينة من الضرائب(١) .

= الرءوس ، أما الثانية فكانت تقابل ما يسمى بالخراج أو ضريبة الأرض. ويبقى قول سويرس «وقبل عهده لم تكن هناك أى ضرائب مفروضة عليهم » فى حاجة إلى نظر .

(١) كان على الأقباط أن يدفعوا نوعين من الضرائب :

١ – الجزية أو ما يسمى بضريبة الرءوس . وتذكر المصادر العربية أن مقدارها ديناران فى العام على كل شخص باستثناء النساء والأطفال والشيوخ . ولكن أوراق البردى تثبت أنها كانت تقدر على حسب ثروة الشخص وليست ثابتة . ويبدو أن ما ذكره المؤرخون العرب عن هذا المقدار ما هو إلا متوسط ما يؤديه دافعو الضرائب ليس إلا . ومعنى هذا أن الجزية المفروضة على كل قرية كانت تؤخذ بضرب عدد الرءوس فى اثنين ، ثم يقسم الناتج على أبناء القرية بحسب ثروة كل فرد . وقد ثبت من قوائم الضرائب المكتوبة باللغة اليونانية والتى يرجع تاريخها إلى القرن الأول للهجرة أنه كانت تحصل أحياناً مبالغ أقل من دينارين بل أقل من دينار وقد يصل الرقم المحصل إلى أربعة دنانير إذا كان الشخص من ذوى الثراء .

٢ – ضريبة الأرض ، وكانت تختلف من وقت إلى وقت تبعاً لدرجة الفيضان السنوى من ناحية، ولسياسة كل حاكم من ناحية أخرى (انظر النجوم الزاهرة ١/ ٢٤ ؛ وفتح العرب لمصر لبتلر ص ٣٩٢ و ٣٩٥ ، والأعلاق النفيسة لابن رسته ص ١١٨ و ١١٩ (ليدن ١٨٩١) ، ودائرة المعارف الإسلامية مادة Egypt ص ١٦ ، و Lane Poole فى A History of Egypt ص ١٩ و ٢٠ و ٤٣ ، وابن حوقل : المسالك والممالك ص ٨٨ و ٨٩ و ١٠٧ و ١٠٨ ، والمقريزى : إغاثة الأمة ١٣ – ١٨ ، والخطط للمقريزى ١/ ٩٨ و ٩٩ وشكرى فيصل ص ١٢٤.

٦ — ويجب أن نذكر اسم عمر بن عبد العزيز مرة أخرى فى هذه المرحلة لأنه كان أول من ألغى ضريبة الرءوس على الأقباط إذا اعتنقوا الإسلام ورفض فى ذلك أن يأخذ بمشورة من نصحوه باستمرار تحصيل الجزية نظراً لازدياد من يعتنقون الإسلام . وقد رد عليهم بقولته الشهيرة : « إن الله إنما بعث محمداً صلى الله عليه وسلم هادياً ولم يبعثه جابياً . ولعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه ».وقد أدت هذه السياسة إلى إغراء بعض الأقباط بالدخول فى الإسلام . ولكن مرة ثانية : لم يظهر أثر هذا العامل خلال هذه المرحلة .

٧ — أن حركات الدخول فى الإسلام سارت بطيئة فى أنحاء البلاد خلال هذا القرن . ولم تحدث موجات ذات بال ماعدا تلك التى سبقت الإشارة إليها ، وماعدا موجات الدخول فى الإسلام التى قام بها العرب الجاهليون المقيمون بمصر . وقد أشار المؤرخون بالنسبة للقسم الأخير إلى أن عدداً كبيراً من هؤلاء العرب لم يترددوا فى تأييد إخوانهم الفاتحين ، وفى تعويض عمرو ابن العاص عن خسائره خلال الفترة الأولى من الصراع .

وكانت النتيجة الحتمية لتلك العوامل المتضاربة أن حققت اللغة العربية بعض النصر على حساب اللغة القبطية التى فقدت بدورها شيئاً من قوتها فى صراعها من أجل الحياة . وإن بقاء اللغتين جنباً إلى جنب : وفشل أيهما فى القضاء على الأخرى ، لا يعنى أنهما كانتا فى حالة ركود ، فمن المتوقع أن يكون قد حدث بينهما نوع من التأثير المتبادل ، ومن غير المشكوك فيه أن تكون كل لغة قد تركت شيئاً من معالمها على الأخرى .

الفصل الثالث

المرحلة الثانية من الصراع

مرحلة التقدم

أما المرحلة الثانية فمن الممكن أن تحدد نهايتها بعام ٢١٥ هـ = ٨٣٠ م . والعلامة المميزة لهذه المرحلة أنه بنهايتها كان ميزان القوى قد اختل لصالح اللغة العربية التى حققت نجاحاً كبيراً . أما الأسباب التى أدت إلى هذه النتيجة فهى كما يلى :

١ — ازدياد حركة التعريب للدولة ، وإحلال العرب أو المسلمين محل الأقباط . وقد أدت هذه الحركة بالأقباط إلى أن يهملوا تدريجياً دراسة اللغتين اليونانية والقبطية ، وأن يسرعوا فى تعلم اللغة العربية لتفتح أمامهم فرص العمل ، أو ليحتفظوا بما فى أيديهم من وظائف . ولم تؤد حركة التعريب إلى أى تذمر أو احتجاج من الأقباط ، إذ كان التعريب انتقالا من لغة أجنبية هى اليونانية إلى لغة أجنبية أخرى هى العربية . وكما تعلّم الأقباط اليونانية واستعملوها فى الدواوين على الرغم من أنها ليست لغتهم ، لماذا لا يتعلمون العربية ويستعملونها فى الدواوين بدلا منها وهى لغة المنتصرين ، ولغة سوف تفتح أمامهم أبواب الرزق ؟

وليس هذا فحسب ، فإن بعض الأقباط لم يقنع بتعلمه اللغة العربية ، وأراد أن يذهب خطوة أبعد فى التقرب إلى الحكام فاعتنق الإسلام ، ولم يكتف بعضهم بالإسلام فحاول أن ينتسب إلى إحدى القبائل العربية علّ ذلك يشفع له عند الناس ويجعله ينعم بالمساواة بينهم .

٢ — إحكام الحصار على الأقباط لمنعهم من الفرار من دفع الجزية بأى وسيلة من الوسائل عدا اختيار الإسلام ، ولإحباط مساعيهم فى التهرب من دفع التزاماتهم المالية . وقد لجأ الأقباط إلى حيل متعددة قوبلت بردود أفعال مناسبة :

(أ) فقد زاد عدد الأقباط الذين ادعوا حقهم فى الإعفاء من دفع الجزية بحجة ترهبهم أو انتسابهم إلى الكنيسة ، مما أدى بالوالى إلى فرض جزية مقدارها دينار على كل نسمة ، كما قام بإحصاء جميع الرهبان فى كل الكور وأمر ألا يرهب أحد بعدهم .

(ب) ولجأ بعضهم إلى تغيير محال إقامتهم بعد أن انتهت السلطات من تعداد السكان ، وأقاموا فى نواح أخرى لم تدرج أسماؤهم فى قوائم الضرائب فيها ، مما أدى بالوالى أن يصدر أوامره المشددة بعدم السماح لأحد بالسفر أو الانتقال من قرية إلى قرية بدون أن يكون حاملا لجواز سفر ، وتغريم من يضبط بدونه مبلغ خمسة دنانير . كذلك صدرت الأوامر بألا يسمح لقافلة بالانتقال من مكان إلى آخر مالم تكن حاملة لإذن كتابى وإلا تعرضت للمصادرة .

(ج) كذلك لجأ بعض المزارعين إلى هجر أراضيهم وقراهم بحجة عدم استطاعتهم الوفاء بالتزاماتهم المالية (١) ، فاضطرت الحكومة

---

(١) تلقى أوراق بردى « كوم أشقاو » شعاعاً من النور على هذه الحركة التى كان محورها الزراع ، وكان الوالى يأمر بإعادتهم إلى قراهم الأصلية . فنراه يكتب إلى صاحب « أشقوه » أنه علم بوجود جالية فى أرضه ويطلب منه أن يردها إلى أرضها الأصلية . ونراه يرسل مندوبين للنظر فى حركة الهرب ، ويطلب من صاحب الكورة أن ييسر مهمتهم ، وأن يرسل معهم رجالا ثقات يعرفون الكتابة ليقوموا فى حضرتهم بكتابة أسماء الهاربين وألقابهم ، وليبينوا أيضاً من أين هربوا وإلى أى جهة ذهبوا . (انظر : د . سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى فجر الإسلام ص ٢٢٨) .

إلى تتبع هؤلاء المهاجرين وردهم ، أو إلى تهجير بعض القبائل العربية وإحلالها محلهم كما سنتحدث فيما بعد .

(د) وقام بعضهم بثورات دموية قوبلت بشدة ، وأخمدت بقسوة ، ومن ذلك ثورات أعوام ١٠٧ و ١٢١ و ١٣٢ و ١٣٥ و ١٥٠ و ١٥٦ هجرية (١).

٣ - تتابع هجرات القبائل العربية إلى مصر لأسباب مختلفة بعضها سياسى وبعضها دينى وبعضها اقتصادى . وقد حدث هذا بشكل مطرد خلال تلك الفترة . وأحصى ماك ميكل ما أمكن التعرف عليه من القبائل التى وفدت إلى مصر فى الفترة ما بين سنة ١٣٣ هـ إلى ٢٤٢ هـ فوجدها تبلغ ثلاثا وثلاثين قبيلة متفرقة فى فروع مختلفة . ويمكن التمثيل لهذه الهجرات بما يأتى :

(أ) قبيلة لخم التى رحل بعضها مع الفاتحين إلى مصر ثم دخلت قبائل كثيرة منهم فى القرنين السابع والثامن ، وحطت رحالها فى جهات الإسكندرية ، وقد كان منهم أمير حكم مصر عام ١٣٣ هـ ، ٧٥٠ م . وقد كان تعيين وال من قبيلة معينة من أكبر الفرص للمهاجرة فقد كان يرافقه مالا يقل عن عشرين ألف مقاتل من قبيلته .

(ب) قيس عيلان التى رحل بعض منها إلى مصر عام ١٠٩ هـ = ٧٢٧ م بأعداد كبيرة تصل إلى ثلاثة آلاف شخص فى رواية ، وخمسة آلاف فى رواية أخرى . ونزلوا بالحوف الشرقى (٢) ، وصرف لهم الوالى

(١) ذكر المقريزى أن أولى ثورات القبط حدثت عام ١٠٧ هـ ، ولكن أوراق البردى تتحدث عن ثورة فى الصعيد أسبق من ذلك حدثت فى عام ٩٤ هـ = ٧١٢ م .

(٢) يرى المقريزى أن قليلا من أفراد قيس كانوا قد أتوا مصر قبل تهجير من هجروا فى عهد الوليد بن رفاعة الفهمى . ويخالف ماك ميكل فى ذلك لأنه يرى أن ثلاثة من الحكام القيسيين حكموا مصر قبل الوليد بين سنتى ٩١ و ١٠٩ هـ ، منهم اثنان من فهم وواحد من عبس . ولا يمكن أن يحكموا من غير أن يكون قد صاحبهم عدد كبير من قبائلهم .

مرتبات من أموال الصدقة والعشور ، وأمرهم بالزرع وتربية الإبل والخيول . وكان يتحصل للرجل منهم فى الشهر نحو عشرة دنانير ، ولم يكن عليهم مؤنة فى علف إبلهم ولا خيولهم لجودة مرعاهم . وتضاعف عددهم فيما بعد بشكل ملحوظ ، فسرعان ماتسامع باقى أفراد القبيلة بخصب الأرض وكثرة خيراتها فهاجر عدد آخر يبلغ خمسمائة أسرة ، ثم بعد سنة أتى نحو خمسمائة أسرة أخرى، وهكذا . وقد حقق تهجير هذه القبيلة أهدافاً كثيرة أهمها :

(أ) الإقامة فى منطقة الحوف الشرقى التى قام أهلوها الأقباط بثورتهم الأولى عام ١٠٧ هـ حتى يكونوا عامل تعادل فى المنطقة .

(ب) محاولة عمل تعادل من نوع آخر يتم هذه المرة بين القبائل السبئية والعدنانية . فقبل هذه الهجرة لم يكن بأرض مصر من قيس إلا عدد قليل من فهم وعدوان .

(جـ) المساعدة على انتشار الإسلام ، إذ سكنت موقعاً آهلا بالسكان الأقباط . على عكس ماحدث من قبل لمعظم القبائل العربية التى لم تختلط بسكان الريف والقرى إلا قليلا ، مما جعل انتشار الإسلام فى القرن الأول محدود الأثر .

(د) حلها فى الزراعة محل المزارعين الذين تركوا أرضهم ، ورحلوا إلى أماكن أخرى ، فكان جزء من مهمتهم ملء الفراغ الذى تركه السكان الأصليون .

وهكذا كان تهجير هذه القبيلة بأعداد ضخمة – بالإضافة إلى موقع سكناها – عاملا كبيراً من العوامل التى أدت إلى سرعة إدماج العنصر العربى فى العنصر المصرى، وأصبحنا نرى فى الوجهين البحرى والقبلى عرباً تزوجوا من نساء قبطيات اعتنقن الإسلام . كما أصبحنا نرى علاقات اجتماعية طيبة

بين العرب وغيرهم . وهذا ولاشك أعان على انتشار الإسلام بشكل واسع وبسرعة ملحوظة .

٤- ازدياد عدد الداخلين فى الإسلام فرادى وجماعات نتيجة لأسباب كثيرة ، أهمها :

(أ) قوة الحركة الدينية ونشاط الدراسة الإسلامية والعربية فى مصر فى ذلك الوقت ، وامتلاء مصر منذ أواخر القرن الأول بعلماء الدين والقراء والمفسرين والمحدثين ، على نحو ما سنفصله فى الفصل الخامس من هذا الباب .

(ب) كان هناك حركة فردية بين المفكرين فى تقبل الإسلام . فقد استجاب له كثيرون من الذين كانوا يحسون أعمق القلق فى حياة المسيحية ويعانون أقسى الآلام حين يرون أمام أعينهم تطاحن فرقها وتنازع مذاهبها . وقد كتب بتلر فى شأن هذا اللون من الناس يقول : « وأما الحقيقة المرة فهى أن كثيرين من أهل الرأى والحصافة قد كرهوا المسيحية لما كان منها من عصيان لصاحبها ، إذ عصت ما أمر به المسيح من حب ورجاء فى الله ... ومنذ بدا ذلك لهؤلاء العقلاء لجأوا إلى الإسلام فاعتصموا بأمنه واستظلوا بوداعته وطمأنينته وبساطته (١) » .

(ج) الإغراء المادى المتمثل فى الإعفاء من الجزية كما سبق أن أشرنا . وكان هذا الإغراء متمثلا بشكل أوضح فى المدن ، وبين أرباب الوظائف ، وأصحاب المهن غير الزراعية ، لأن معنى إعفائه من الجزية إعفاؤه الكامل من دفع أى ضريبة للحكومة . أما إعفاء الفلاح من الجزية فلم يكن يعفيه من دفع ضريبة الأرض المعروفة باسم « الخراج » . فالخراج كان مربوطاً بالأرض يتحمله صاحبها حتى لو أسلم

---

(١) انظر شكرى فيصل : المجتمعات الإسلامية فى القرن الأول ص ١٥٣ .

أو باعها لمسلم . ولهذا يقول المستشرق دى ساسى : « لعل ذلك أحد لأسباب التى دعت إلى بقاء المسيحية فى الأقاليم مدة أطول منها فى المدن » . كذلك كان فقد الرهبان لامتيازاتهم المادية عاملا من عوامل ازدياد اعتناق الإسلام بينهم ، مما أدى إلى تناقص عدد الرهبان ، وهجر الأديرة شيئاً فشيئاً حتى صارت خراباً (١) .

(د) يقول المقريزى : لم ينتشر الإسلام فى قرى مصر إلا بعد المائة من تاريخ الهجرة عندما أنزل عبيد الله بن الحبحاب مولى ساول قيساً بالحوف الشرقى . فلما كان بالمائة الثانية كثر انتشار المسلمين بقرى مصر ونواحيها . وقد سبق حديثنا عن الهجرات العربية وبيان أهميتها فى نشر الإسلام .

(هـ) وقد تحدث سويرس بن المقفع عن موجات عدة من الدخول فى الإسلام تمت فى تلك الفترة . وهذه الموجات — من وجهة نظر علم اللغة — بغض النظر عن أسبابها الحقيقية قد قوت إلى درجة كبيرة من مركز اللغة العربية . ونحن نشير هنا إلى الحالتين الآتيتين اللتين ذكرهما ابن المقفع :

١ — فى ولاية حفص (بن عامى ١٢٤ هـ = ٧٤١ م و ١٢٨ هـ = ٧٤٥ م) اعتنق الإسلام آلاف من الأقباط يبلغ عددهم أربعة وعشرين ألفاً (٢) .

٢ — فى ولاية عون (من ١٣٣ هـ = ٧٥٠ م إلى ١٣٦ هـ = ٧٥٣ م ومن ١٣٧ هـ = ٧٥٤ م إلى ١٤١ هـ = ٧٥٨ م) فرضت ضرائب باهظة على

---

(١) جاك تاجر ص ٨٨ ، وانظر شكرى فيصل ص ١٥٣ و ١٥٤ . ومصر الإسلامية للخربوطلى ص ٣٠ .

(٢) يبدو أن سبب اعتناق هذا العدد الكبير الإسلام فى عهد حفص أنه نادى بإعفاء كل ذمى من دفع الخراج . انظر : ترتون فى كتابه : أهل الذمة فى الإسلام ص ٣٨ .

الأقباط لدرجة أن كثيراً منهم تخلوا عن دينهم المسيحي وتبعوا عبد الله (١) .

ولسنا نزعم أنه بانتهاء هذه الفترة كان كل شخص يعرف اللغة العربية . ولكننا نزعم على الأقل أنه بانتهائها كان كل شخص يعرف العربية يحس بمكانته في المجتمع ويشعر أنه ابن من أبنائه بخلاف من أصر على تمسكه بلغته الأصلية ، ولم يحاول تعلم اللغة العربية فقد أحس بانفصال عن المجتمع ، وشعر بغربة لا يمكن أن يحس بها الشخص في وطنه . وأقرب مثل لذلك ما ذكره الشماس يوحنا أنه بينما كان موسى مطران أوسيم في طريقه للمثول بين يدي الخليفة مروان الذي لجأ إلى مصر عام ١٣٢ هـ = ٧٥٠ م ألقاه الجند أرضاً وأخذوا يضربونه على عنقه وعلى أضلاعه .. ولم يستطع المطران أن يتفاهم معهم لأنه كان لا يعرف اللغة العربية وكان محتاجاً إلى مترجم ليترجم له ما يفوهون به .

(١) يعني الخليفة أبا جعفر عبد الله بن محمد .

الفصل الرابع

المرحلة الثالثة من الصراع

مرحلة النصر

هى آخر مراحل الصراع والتوتر : وقد شملت بقية القرن الثالث الهجرى ومعظم القرن الرابع أو جميعه ، وتلتها مرحلة من الهدوء والاستقرار بدأت مع القرن الخامس . ويرجع ذلك للعوامل الآتية :

١ — ازدياد الهجرات العربية خلال هذه المرحلة . ومن أشهر القبائل المهاجرة فى تلك الفترة :

(أ) قبيلة الكنز . ففى سنة ٢٤٠ هـ = ٨٥٤ م فى خلافة المتوكل حدثت هجرة كبيرة إلى مصر من ربيعة ؛ حيث جاءت قبيلة الكنز وهى إحدى بطون ربيعة ، وتفرق رجالها فى جهات كثيرة ؛ ونزلت طائفة منهم فى أسوان وشمال النوبة . وفى سنة ٢٥٦ هـ رافقت ربيعة جهينة إلى البجة شرقاً . وكانت البجة تشن الغارات على القرى المصرقية فى كل وقت حتى أخربوها ، فقامت ربيعة بمنعهم من ذلك حتى كفوهم ثم تزوجوا منهم ؛ وفى ذلك الوقت أعيد كشف مناجم الذهب القديمة فى صحراء النوبة ؛ مما أغرى العرب على الإقبال على مصر العليا للاستيلاء على هذه المناجم . وخرجت قبيلة الكنز من ذلك بنصيب الأسد فكثرت أموالهم واتسعت أحوالهم (١) .

---

(١) انظر قبائل العرب فى مصر لأحمد لطفى السيد ١/٤٩ .

(ب) قبيلتا هلال وسليم اللتان هاجرتا فى القرن العاشر . فحين أصبح الفاطميون سادة فى شمالى إفريقية ، ونشروا نفوذهم على مصر والشام فى سنة ٣٨١ هـ = ٩٩١ م دعا الخليفة الفاطمى العزيز (٣٦٥ — ٣٨٦ هـ) قبائل هلال وسليم إلى النزول بمصر فهبطوها وأنزلهم الصعيد (١) .

(جـ) فى أول القرن العاشر الميلادى اضطرت سلالة جعفر الطيار إلى النزوح عن الحجاز تحت ضغط بنى الحسن فالجأت إلى مصر (٢) .

٢ — فى عام ٢١٦ هـ = ٨٣١ م نشبت أكبر ثورة فى البلاد انضم إليها عدد كبير من الأقباط وشملت الوجه البحرى كله . فاضطر المأمون إلى أن يحضر بنفسه إلى مصر ويخمدها بشدة . ويقول المقريزى فى ذلك : فلما كان فى جمادى الأولى سنة ٢١٦ انتقض أسفل الأرض بأسره عرب البلاد وقبطها ، وأخرجوا العمال وخلعوا الطاعة لسوء سيرة عمال السلطان فيها ، فكانت بينهم وبين عساكر الفسطاط حروب . وبعد هذه المعركة لم تقم للأقباط قائمة ودخل كثير منهم الإسلام . ويعلق المقريزى على إخماد المأمون للثورة قائلا : ومن حينئذ أذل الله القبط فى جميع أراضى مصر وخذل شوكتهم ، فلم يقدر أحد منهم على الخروج ولا القيام على السلطان ، وغلب المسلمون على القرى .

٣ — من الثابت أنه منذ القرن الثالث الهجرى أخذ عدد المسيحيين فى مصر يتناقص ، ولم يعد لهم أغلبية عددية هناك . ويعتبر عصر الحاكم بأمر الله (من ٣٨٦ هـ = ٩٩٦ م إلى ٤١١ هـ = ١٠٢٠ م) نهاية النفوذ المسيحى فى مصر .

ويعلق الدكتور جاك تاجر على عهد الحاكم بقوله : « إن هناك حقيقة

---

(١) — المرجع السابق ١/٥٥ .

(٢) المرجع السابق ١/٦٣ و ٧٠ .

واقعة لا سبيل إلى انكارها ، وهى أنه قبل أن يترك الحاكم عرشه قضى على نفوذ النصارى فى مصر . ومن ذلك الحين أصبح الأقباط مهملين فى الدولة ، وأصبح تاريخهم عبارة عن جملة أحداث ثانوية ، وفقدوا بعد ذلك شخصيتهم تدريجياً ليندمجوا فى سواد الشعب » .

وشيئاً فشيئاً زاد دخول الأقباط فى دين الإسلام . ولم يأت القرن الثامن الهجرى = الرابع عشر الميلادى حتى كان عدد المسيحيين لا يزيد على عشر مجموع السكان .

٤ — فى عام ٢١٨ هـ = ٨٣٣ م صدرت أوامر الخليفة المعتصم العباسى إلى واليه على مصر كيدر بن نصر بتسريح الجيش العربى وشطب أفراده من ديوان الجند . وقيد الأتراك فى مكانهم . وقد أدى هذا إلى تقليل النفوذ الرسمى للعرب فى مصر ، ولكنه فى نفس الوقت قوى من مركزهم الاجتماعى وبالتالى من مركز اللغة العربية . فلقد كانت النتيجة الحتمية هى محاولة العرب الجدية البحث عن وظائف مدنية لهم . أو الاشتغال بالأعمال الحرة كالزراعة والتجارة . والعمل على الاندماج فى السكان الأصليين . والسعى لاكتساب صداقتهم ، وإنشاء علاقات أسرية معهم .

٥ — استمرار إجراءات تعريب الدولة . وصبغها صبغة إسلامية . والتمسك بشرط الإسلام لمن يريد شغل أى وظيفة فى الدولة أو البقاء فى منصبه. وأشير فى ذلك إلى الأمثلة الآتية :

(أ) فى سنة ٢٣٥ هـ أصدر الخليفة المتوكل نشرة يحذر فيها من توظيف اليهود والنصارى فى الوظائف الرئيسية .

(ب) اعتنق اليهودى يعقوب بن كلس الإسلام فى ظروف لا تؤيد بحال صدق عواطفه الدينية . كان أصله من بغداد وقدم إلى مصر فى عهد كافور الإخشيدى ، وكان رجلا واسع الذكاء والحيلة . وحين علم

مجال زمنى واسع تم فى فترة ما من فتراته هذا التحول الكبير . ونبدأ أولا فنعرض الآراء المختلفة التى قيلت حول هذا الموضوع ، ثم نثنى برأينا فيه :

١ – يذهب القس رنودو Renaudot إلى أنه بعد فتح العرب لمصر بنحو قرن تلاشت اللغة القبطية نهائياً من معظم القطر المصرى . ولم تعد تعرف إلا بين العلماء الذين كانوا يدرسون تلك اللغة دراسة خاصة (١) .

٢ – يرى دى لاسى أوليرى De Lacy O'Leary أنه من الصعب تحديد الوقت الذى حلت فيه اللغة العربية محل القبطية باعتبارها لغة دارجة بين المصريين . ويرى أنه حتى القرن العاشر الميلادى ظلت اللغة القبطية لغة حية خارج الأديرة . ويؤيد رأيه بالحقيقة القائلة إنه خلال ذلك القرن ظهر نتاج من الشعر القبطى الشعبى وتم جمعه . وهو يحدد القرن التاسع الميلادى باعتباره قرن التحول الخطير فى تاريخ اللغة القبطية ، كما كان خطيراً فى تاريخ الأقباط .

٣ – يرى آدم متز أن القبط لم يبدأوا بترك لغتهم القبطية إلا نحو أواخر القرن الرابع الهجرى = العاشر الميلادى .

٤ – يرى بول كهل Paul Kahle أنه فى القرن العاشر أو الحادى عشر الميلادى أصبحت اللغة العربية راسخة جداً باعتبارها اللغة الرسمية فى مصر .

٥ – يرى كاتب مادة « قبط » فى دائرة المعارف الإسلامية أنه فى القرن الحادى عشر الميلادى – وربما قبل ذلك – لم تعد اللغة القبطية لغة مكتوبة .

٦ – يرى الدكتور جاك تاجر أن اضمحلال القبطية حدث بالتدريج وعبر عن ذلك بقوله : « لقد كبتت اللغة العربية اللغة القبطية رويداً رويدا مثل النبات الذى حرم من الماء والشمس فى ظل شجرة كبيرة . لقد ظلت اللغة

---

(١) انظر سيدة كاشف : مصر فى فجر الإسلام ص ٢٥٩ .

القبطية على قيد الحياة حتى القرن العاشر الميلادى بل ازدهرت فى الأديرة . ولكنها منذ القرن الحادى عشر حرمت من العناية فذبلت بسرعة حتى إذا جاء القرن الثانى عشر كادت تلفظ أنفاسها » . ولكنه يرى أنها ظلت مزدهرة فى صعيد مصر مدة أطول .

٧ — يؤكد المسيو ماسبيرو (مدير دار الآثار سابقاً) أن سكان الصعيد كانوا يتكلمون ويكتبون باللغة القبطية حتى السنين الأولى من القرن السادس عشر فى أوائل حكم الأتراك .

٨ — يرى برنس J.D. Prince أن اللغة القبطية ماتت كلغة حديث منذ نهاية القرن السابع عشر الميلادى . واستند فى ذلك إلى ما ذكره الرحالة الهولندى Van Sleb من أنه قابل رجلا عجوزاً نحو عام ١٦٨٠ م يتكلم القبطية . ويرى أن الفترة الحرجة فى تاريخ اللغة القبطية فى مصر هى الفترة ما بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر ، إذ بينهما أخذت القبطية تتلاشى بالتدريج كلغة خطاب . ويعزز دعواه بما نقله عن المقريزى (فى القرن الخامس عشر الميلادى) من أنه وجد نساء الأقباط وأطفالهم فى الصعيد فى وقته يتكلمون القبطية غالباً . وينهى برنس رأيه قائلا : ولاشك أن اللغة القبطية قد بدأت تأخذ دوراً ثانوياً حتى قبل زمن المقريزى لأنه فى عام ١٣٩٣ م وجدت مخطوطات قبطية كتبت عليها تعليقات باللغة العربية ، مما يدل على أنه فى ذلك الوقت كانت اللغة العربية معترفاً بها كلغة سائدة ، وأنها صار لها الاستعمال العام .

٩ — يرى زكى شنودة أن اللغة القبطية بدأت تضمحل منذ القرن التاسع الميلادى . وما أن جاء القرن الثالث عشر حتى كانت قد دحرتها اللغة العربية وسادت عليها . ويرى أنها ظلت لغة تخاطب فى الصعيد حتى القرن السابع عشر الميلادى . ويحدد القرن التاسع عشر باعتباره نهاية زمن الكلام بالقبطية.

أما نحن فيتلخص رأينا فيما يأتى :

١ — أنه لابد لكى يكون التحديد الزمنى دقيقاً أن نميز بين ثلاثة أنواع من اللغة العربية :

(أ) اللغة العربية باعتبارها لغة الدواوين أو اللغة الرسمية للدولة .

(ب) اللغة العربية باعتبارها لغة الثقافة .

(ج) اللغة العربية باعتبارها لغة التخاطب .

٢ — أنه لابد كذلك أن نعترف بتفاوت انتشار اللغة العربية من منطقة إلى منطقة تبعاً لقربها أو بعدها من مركز الحكم . ولسهولة الوصول إليها أو صعوبته . ولمدى فاعلية العوامل المختلفة التى سبقت الإشارة إليها ، ومن بينها التعريب والإسلام .

ومن أجل هذا فنحن نقترح التواريخ الآتية :

أولا — القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) حين أصبحت اللغة العربية اللغة الرسمية للدولة . بها تكتب الوثائق وتسجل المكاتبات الرسمية وتدون الدواوين . وفى حالة استعمال لغة غير العربية كان لابد من قرنها بترجمتها العربية . ونشير فى ذلك إلى الحقائق الآتية :

(أ) أن مجموعة وثائق البردى المصرية ، ومنها التى حققها أدولف جروهمان Adolf Grohmann وبدأت دار الكتب المصرية فى نشرها منذ عام ١٩٣٤ ، تقل فيها الوثائق المكتوبة بغير العربية أو ذات اللغتين. ومعظمها مكتوب باللغة العربية فقط . والوثائق تشمل فترة تبدأ من القرن الأول الهجرى وتمتد لعدة قرون .

(ب) ما سبق أن قلناه عن الاجراءات التى اتخذتها الدولة منذ نهاية القرن الأول الهجرى لتعريب الدواوين .

(جـ) فى إحدى المنازعات التى شجرت عام ١٣٢ هـ = ٧٥٠ م بين الملكيين واليعاقبة بشأن ملكية بعض الكنائس ، كتب البطريرك ميخائيل الأول إلى السلطات التماساً باللغة القبطية . ولكنه أرفق به ترجمة عربية عملا بمشورة بعض المطارنة .

وليس معنى تعريب الدواوين أن اللغة العربية أصبحت لغة الثقافة أو لغة التخاطب . فكما أن اتخاذ اليونانية لغة الدواوين لم يجعلها لغة عامة قبل الفتح الإسلامى . كذلك اتخاذ العربية فى الدواوين لم يجعلها لغة عامة .

ثانياً : القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادى) حين أصبحت اللغة العربية لغة العلم والثقافة لكل المصريين على السواء : من أسلم منهم ومن لم يسلم . ويؤيد ذلك الحقائق الآتية :

(أ) ظهور مؤلفات باللغة العربية لمؤلفين أقباط لم تعرف لهم مؤلفات بغير العربية وأذكر من بينهم :

١ — سعيد بن بطريق الذى كتب كتباً منها « كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » و « كتاب البرهان » .

٢ — سويرس بن المقفع المسيحى اليعقوبى الذى شغل منصب أسقف فى كنيسة أشمونين نحو عام ٩٨٥ م ، وكان رجلا خصباً فى كتاباته ومع ذلك فضل الكتابة باللغة العربية . وأهم ما كتبه مؤلفه المشهور « سير الآباء البطاركة » .

(ب) ماذكره سويرس بن المقفع فى مقدمة كتابه السابق الإشارة إليه الذى كتبه فى القرن الرابع الهجرى باللغة العربية ، من أنه ترجم مادة كتابه من اللغتين اليونانية والقبطية بعد أن وجد أقباط مصر فى عصره لا يعرفون غير اللغة العربية . ونص عبارته : « فاستعنت بمن أعلم استحقاقهم من الإخوة المسيحيين وسألتهم مساعدتى على نقل ماوجدناه منها (يعنى سير الآباء البطاركة) بالقلم القبطى واليونانى إلى القلم

العربى الذى هو اليوم معروف عند أهل هذا الزمان بإقليم ديار مصر لعدم اللسان القبطى واليونانى من أكثرهم » .

(ج) من الثابت أن الأقباط — فيما بعد — كتبوا تاريخهم بل ومقالاتهم الدينية باللغة العربية . وكان من أشهر كتاب الطائفة أبو شاكر بطرس ابن الراهب ، ومكين ، وأبو الفضائل ... ممن كانوا يجهلون اللغة القبطية .

(د) أن أوراق البردى الطبية القبطية التى نشرها Chassiant تستعمل بكثرة مصطلحات عربية كتبت بحروف قبطية وأحياناً بحروف عربية . لقد كتبها مؤلفون أقباط فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين استعملوا كلتا اللغتين القبطية والعربية ، ولكن بشكل يجعلنا نقول إنهم كانوا على علم باللغة العربية أكثر من علمهم باللغة القبطية . وقد كانوا كثيراً ما يفضلون استعمال المصطلح العربى على مقابله اليونانى أو القبطى .

(هـ) كتب ميخائيل السورى عن جبرائيل الثانى (من بطاركة اليعاقبة ١١٣١ — ١١٤٦ م) يقول : إنه كان بارعاً فى اللغة العربية وخطها . ولما رأى أن الشعب المصرى يتكلم اللغة العربية ويكتب بها نظراً لطول عهد السيادة العربية اهتم بترجمة التوراة والإنجيل إلى العربية ، وكذلك بقية كتب الطقوس الدينية الأخرى ليستطيع الشعب فهمها .

ثالثاً : القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) حيث أصبحت اللغة العربية لغة التخاطب العامة لكل المصريين على السواء ، بدليل ما يأتى :

(أ) أنه فى ذلك القرن كان عدد المسلمين قد زاد بشكل ملحوظ ، فى حين تناقص عدد الأقباط تناقصاً حاداً بإسلام الكثيرين ، وهجرة عدد آخر إلى مناطق النفوذ البيزنطى .

(ب) أن رجال الدين المسيحى كانوا يعظون منذ القرن الرابع الهجرى باللغة العربية لكى يفهمهم سامعوهم .

(جـ) أن أبا صالح الأرمنى ذكر أنه فى القرن السادس الهجرى كان المثقفون القبط فقط من بين رجال الكنيسة هم الذين يعرفون القبطية .

ومع ذلك فنحن نرى أن غلبة العامية العربية على القبطية ربما تأخر عن ذلك قليلا أو كثيراً فى بعض الأماكن النائية من قرى الصعيد ولكن ذلك بأى حال لا يمكن أن يتجاوز قرناً أو قرنين آخرين ، ولا يمكن أن يكون له صفة العمومية . ولهذا فنحن نشك فى أن ما قاله المقريزى (القرن الخامس عشر) : « ونساء نصارى الصعيد وأولادهم لا يكادون يتكلمون إلا بالقبطية الصعيدية ولهم أيضاً معرفة تامة باللغة الرومية » — ينطبق على عصره . ونرى أنه نقله عن مرجع قديم لا يتجاوز الفترة التى ذكرناها بدليل ما جاء فى آخر النص من أن نساء الصعيد لها معرفة تامة باللغة اليونانية (١) ، إذ لاشك أن ذلك لم يكن فى عصره بأى حال من الأحوال .

أما داخل الأديرة وبين الرهبان ، فنحن نتوقع أن يوجد بعض من كانوا يتكلمون القبطية لمدة أطول من ذلك . ويذكر المقريزى فى خططه عن « دير موشه » أن « الأغلب على نصارى هذه الأديرة معرفة القبطى الصعيدى » . ولكن مرة أخرى لا يمكن أن يكون لذلك صفة العمومية وإلا ما احتاج المقريزى إلى النص عليه بالنسبة لهذا المكان ، وبدليل ما ذكره بعض المؤرخين من أنه « لم يمض على الفتح قرن من الزمن حتى اضطر بعض الرهبان أن يلجأوا إلى المترجمين لقراءة النصوص القبطية » .

وأما ما ذكره بعضهم عن وجود أناس يتكلمون اللغة القبطية حتى عصر

---

(١) كان العرب يسمون اليونان بالروم واللغة اليونانية باللغة الرومية (ج . صبحى : قواعد اللغة المصرية القبطية ص ٦) .

متأخر فما هي إلا حالات فردية نادرة لا يبنى عليها حكم ، وهي من ناحية أخرى ليست كافية للقول بحياة لغة ما . ولا يكفي لاعتبار اللغة حية أن يتكلمها فرد أو فردان عن طريق التعلم . أو أن تكون لغة ثانية يصطنعها بعض الناس عن عمد أو تعصب . ومما يدل على ندرة من بقي يتكلم القبطية بعد تلك الفترة أن الرحالة إلى مصر على الرغم من تنقيبهم الشديد كان يصعب عليهم مقابلة أي شخص يعرف القبطية وإذا حدث ووجد أحدهم من يتكلمها كان يزعم أنه آخر شخص يتحدث بها .

ولكن لا تعني هزائم اللغة القبطية المتتالية أمام هجمات العربية أنها لم تثبت وجودها في أي فترة من فترات الصراع . فقد فرضت نفسها لفترة ما كلغة حديث حتى على العرب أنفسهم . وتعلمها الكثيرون منهم . وممن عرفوا بإجادتهم اللغة القبطية القاضي خير بن نعيم الذي كان يتكلم للخصوم الأقباط ويستمع لشهادة شهودهم باللغة القبطية .

كما لا تعني هزيمة اللغة القبطية زوالها النهائي من الوجود ، فلابد أنها ظلت تدرس ويتخصص فيها من يريد على الرغم من اعتبارها لغة ميتة ، كاللغة اللاتينية مثلا التي تعد لغة ميتة ومع ذلك لاتزال تدرس حتى اليوم . ولذا فمن الطبيعي أن يوجد أناس حتى الآن يعرفون اللغة القبطية ، وربما يقدرون على الكلام بها . ومن الطبيعي كذلك أن يهتم رجال الكنيسة القبطية بوجه خاص بهذه اللغة لكتابة كثير من تراثهم الديني بها وإن كان Prince قد ذكر في كتابه The Modern Pronunciation of Coptic أن « معظم الوعاظ الأقباط غير متخصصين في اللغة القبطية ، ولذا فهم يكتفون بترديد الصلوات كالببغاوات باللسان القبطي مع ترجمة لها باللغة العربية » . كذلك ظلت اللغة القبطية حية حياة جزئية في شكل بقايا وآثار اختلطت باللغة العربية وأصبحت جزءاً لا يتجزأ منها ، كما سنتحدث فيما بعد .

أما إلى أي مدى بلغ هذا التأثير ، فهو ما سنعالجه — مع قضايا أخرى — في الباب الثاني إن شاء الله .

الفصل الخامس

النهضة الثقافية فى مصر وأثرها على اللغة العربية

كانت مصر منذ اللحظة الأولى للفتح الإسلامى مركزاً كبيراً للثقافة العربية ، وجامعة إسلامية تغص بالعلماء والدارسين فى مختلف التخصصات . وكانت فى قرونها الإسلامية الأولى بمثابة منارة علمية تشع نورها على كل البلاد المجاورة ، ويؤمها الطلاب من المشرق والمغرب للتزود من علمها الغزير والنهل من موردها العذب .

ويضيق بنا المقام لو أردنا أن نتحدث فى هذا الفصل عن جهود مصر المتعددة فى مجالات العلم المختلفة ، ولذا سنقصر حديثنا على الفروع التى تخص الثقافة العربية والإسلامية والتى كان لها أثر قريب أو بعيد فى النهوض بمستوى اللغة العربية فى مصر والارتقاء بأساليب الكتابة والإنشاء ، كما كان لها أثر كبير فى مساعدة الأجانب عن اللغة على تعلمها ، ومد يد العون لمن يريد إجادة فن الكتابة لينفتح أمامه سبيل العمل فى الدواوين والمصالح الحكومية . وسوف نقصر حديثنا على المجهودات التى تمت حتى نهاية القرن الرابع الهجرى . وهو القرن الذى اعتبرناه نقطة التحول فى لغة الثقافة فى مصر ، وقرن انتصار العربية على القبطية وصيرورتها لغة التأليف للمسلمين والأقباط على السواء .

أما فى مجال الدراسات الإسلامية فقد كانت الريادة لأولئك العرب الذين صاحبوا جيش الفتح من الصحابة أو وفدوا بعده بقليل ، واتخذوا مصر موطناً لهم ، وعاشوا فيها فترة من الزمن ، طالت أو قصرت .

وقد كان من أشهر علماء القراءات الذين قصدوا مصر فى وقت مبكر جداً الصحابة عبيد بن عمر الذى شغل منصب أول قارئ رسمى فى مصر ، وعقبة بن الحارث الفهرى . وتلاهم جيل من التابعين ؛ منهم عبد الرحمن ابن هرمز تلميذ أبى هريرة ، وعبد الله بن العباس الذى اختار الإسكندرية موطناً له : وتوفى عام ١١٧ هـ = ٧٣٥ م .

أما رجال الحديث فكان فى مقدمتهم الصحابى الشهير أبو هريرة راوى أكبر عدد من الأحاديث النبوية ، وقد جاء إلى مصر فى عهد مسلمة بن مخلد (من ٤٧ هـ = ٦٦٧ م إلى ٦٢ هـ = ٦٨١ م) ، وكذلك الصحابة عبد الله ابن عمر بن الخطاب ، الذى جاء مع جيش الفتح إلى مصر ، وعبد الله ابن العباس ، وجابر بن عبد الله ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وأبو ذر الغفارى ، وسعد بن أبى وقاص . وتلاهم جيل من التابعين خصص السيوطى فصلا لتعداد أسمائهم فى كتابه « حسن المحاضرة » .

ومن أشهر من اشتغلوا بالقانون الإسلامى وإصدار الفتاوى الدينية سليم ابن عتر التجيبى الذى أصبح كبير القضاة فى مصر عام ٤٠ هـ = ٦٦٠ م وتوفى عام ٧٥ هـ = ٦٩٤ م . ومنهم عبد الرحمن بن حجيرة الذى عين كبير القضاة فى عهد عبد العزيز بن مروان (من ٦٥ هـ = ٦٨٤ م إلى ٨٥ هـ = ٧٠٤ م) واشتهر بآرائه السديدة وفتاواه الموفقة فى المسائل الفقهية المشكلة . وأخيراً نافع مفتى المدينة ، الذى أرسله عمر بن عبد العزيز إلى مصر ليتولى منصب الإفتاء فيها .

ومع مطلع القرن الثانى الهجرى بدأ أول جيل من المصريين يقتحم الميدان ويسهم بدوره فى إقامة صرح الدراسات الإسلامية :

وأول قارئ مصرى ذاع صيته داخل البلاد وخارجها كان عثمان ابن سعيد الملقب بـ « ورش » الذى ولد عام ١١٠ هـ = ٧٢٨ م ، وتتلمذ

على نافع بن عبد الرحمن أحد القراء السبعة . وتوفى ورش عام ١٩٧ هـ = ٨١٢ م وعاصره جمع آخر من القراء المحليين لم يشتهروا شهرته مثل سقلاب ابن شيبة ، وعبد الله بن وهب ، ومعلى بن دحية ، وأشهب بن عبد العزيز . ثم ظهر جيل ثالث ، وتضاعف عدد القراء بشكل ملحوظ . ولم يأت النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى حتى كانت كتب كثيرة قد ظهرت فى مصر تتناول فن القراءات والتفسير القرآنى . ومن أشهر من ألف فى هذين الموضوعين العالم المصرى الشهير أبو جعفر النحاس (توفى سنة ٣٣٨ هـ = ٩٥٠ م) الذى ألف « إعراب القرآن » و « معانى القرآن » و « الناسخ والمنسوخ » و « الوقف والابتداء » . ومن حسن الحظ أنها وصلتنا جميعاً .

أما مجال التأليف فى الحديث النبوى فكان أسبق من مجال التأليف فى القراءات والتفسير ، إذ أن أقدم مجموع وصلنا هو ذلك الذى كتبه عبد الله بن وهب (ولد عام ١٢٥ هـ = ٧٤٢ م) بعنوان « الجامع فى الحديث ». وقد عثر على جزء كبير منه مؤخراً فى « إدفو » فى صعيد مصر . ومما هو جدير بالذكر كذلك أن أصحاب الكتب الستة من رجال الحديث قد زاروا مصر بحثاً عن مادة جديدة ، ومنهم من زارها أكثر من مرة ، مثل « النسائى » الذى غادرها لآخر مرة عام ٣٠٢ هـ = ٩١٤ م .

وأول فقيه مصرى عرف كمجتهد كان يزيد بن أبى حبيب الذى شغل منصب مفتى مصر ، ثم تلاه عدد من الفقهاء المصريين الذين نافسوا أصحاب المدارس الفقهية الأربع المشهورة مثل ، الليث بن سعد (ولد بمصر عام ٩٤ هـ = ٧١٢م) ، وتلا ذلك جيل كبير من الفقهاء الذين ناصروا مدرسة فقهية معينة ، كمدرسة مالك أو الشافعى أو أبى حنيفة .

وقد كانت شهرة مصر فى مجال الدراسات الإسلامية معروفة فى كل أنحاء العالم الإسلامى ، وكثيراً ما استشير علماؤها فى مشكلات أثيرت خارج حدودها .

ومن ذلك ما رواه الكندى من أن الخليفة عبد الملك بن مروان كتب إلى والى مصر يسأله أن يرسل إليه برأى فقهاء مصر فى عدة المطلقة ثلاثاً . وقد جذبت هذه الشهرة علماء كثيرين وفدوا إلى مصر للاستفادة من علمها ، وهذا بدوره أفاد علماء مصر وربطهم بجوانب مختلفة من التفكير . ومن بين من قصدوا مصر من كبار العلماء الإمام الشافعى ، والإمام الطبرى المؤرخ والمفسر المشهور (وصل مصر عام ٢٥٣ هـ = ٨٦٧ م) .

وأما فى مجال الأدب فلم تنبغ مصر طوال حكم الأمويين ، وكل ما وصلنا عن هذه الفترة أبيات شعرية قليلة منسوبة إلى شعراء زائرين .

ولكن مع مطلع العصر العباسى بدأ الشعر المصرى يحقق تقدما ملحوظاً ، وظهر إلى جانب الشعراء الزائرين شعراء مصريون ، مثل سعيد بن عفير (ولد فى مصر عام ١٤٦ هـ = ٧٦٣ م) ، ومعلى الطائى . ومع قيام الدولة الطولونية حقق الأدب تقدماً آخر أخذ أشكالا ثلاثة :

١ — الشعر : انتعش الشعر أيام حكم الطولونيين نتيجة لتشجيع الحكام وإغداقهم الجوائز والهبات على الشعراء ؛ مما جذب الشعراء من الخارج من ناحية ، ونهض بالشعر المصرى من ناحية أخرى . وعلى رأس الشعراء المصريين نجد الحسين بن عبد السلام المسمى بالجمل الأكبر (ولد سنة ١٧٠ وتوفى سنة ٢٥٨) ، والحسين المسمى بالجمل الأصغر والقاسم بن يحيى بن معاوية ومنصور بن إسماعيل بن عمر . ويقال إن أسماء الشعراء الذين كانوا يترددون على بلاط أحمد بن طولون كانت تملأ اثنتى عشرة كراسة .

٢ — النثر : فى هذه الفترة وجهت عناية أكبر « بديوان الإنشاء » وأصبح مطمح كل كاتب أن يشغل منصبا فيه . وقد أدى هذا بالكتاب أن حاولوا إجادة اللغة العربية والتلاعب بأساليبها ، كما أدى إلى ظهور مؤلفات تأخذ بيد الكتاب الناشئين ، وتبذل لهم النصيحة ، وترشدهم إلى كيفية

الارتقاء بأساليبهم . وأشهر كتاب ظهر فى تلك الفترة كتاب « صناعة الكتاب » لأبى جعفر النحاس . والكتاب لم يصلنا ، ولكن من اقتباسات «صبح الأعشى» منه يمكننا أن نقول إنه يشتمل على نصائح عامة تفيد من يريد أن يحترف مهنة الكتابة ، ويحوى قائمة بالألقاب الرسمية التى يجب أن يخاطب بها كل شخص بحسب منصبه ، ويبين مقادير قطع الورق وما يناسب كل مقدار من الأقلام ؛ ويعطى نماذج مختلفة لبدايات الرسائل ونهاياتها ، وقواعد مختصرة للهجاء ؛ ويعرف بوظائف الدولة واختصاصات كل منها ؛ ويشرح المصطلحات المستعملة فى الرسائل الديوانية . وهو إلى جانب ذلك يقدم نماذج للرسائل الديوانية والإخوانية على مختلف العصور . وهذا قالب للرسالة الديوانية كما اقترحها أبو جعفر النحاس ننقله عن « صبح الأعشى » :

« وقد اختلف فى تقديم الاسم والكنية واللقب . والذى رتبه أبو جعفر النحاس فى صناعة الكتاب تقديم الاسم على الكنية وتقديم الكنية على اللقب . مثل أن يقال (من عبد الله فلان أبى فلان الإمام الفلانى أمير المؤمنين) » . ثم قال : وهذه المكاتبة هى التى اصطلح عليها فى الأمور السلطانية التى تنشأ بها الكتب من الدواوين ... وترتيب المكاتبة على ما ذكره فى صناعة الكتاب أن يكتب : (من عبد الله فلان أبى فلان الإمام الفلانى أمير المؤمنين : سلام عليك ، فإن أمير المؤمنين يحمد الله إليك الله الذى لا إله إلا هو ؛ ويسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله) ثم يفصل ببياض يسير ويكتب : (أما بعد فإن كذا وكذا) ثم يأتى على المعنى . فإذا فرغ من ذلك وأراد أن يأمر بأمر يفصل ببياض يسير ثم يكتب : (وقد أمر أمير المؤمنين بكذا ورأى أن يكتب إليك بكذا) فيؤمر بامتثال ما أمر به والعمل بحسبه ثم يفصل ببياض ويكتب : (فاعلم ذلك من رأى أمير المؤمنين واعمل به إن شاء الله تعالى ، وكتب فلان ابن فلان) باسم الوزير واسم أبيه (يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا) .

وقد يكتب فى أواخر المكاتبة بعد استيفاء المقصد (هذه مناجاة أمير المؤمنين لك) أو (هذه مفاوضة أمير المؤمنين لك) .

ومما يدل على أهمية كتاب النحاس واحتلاله مكاناً فريداً بين أقرانه أننا نجد القلقشندى فى كتابه « صبح الأعشى » يعتمد – فى الفصول المتناظرة – على هذا الكتاب إلى درجة كبيرة . وتبلغ اقتباساته منه نحو المائة . وهناك صفحات كاملة من « صبح الأعشى » مأخوذة بنصها من كتاب النحاس .

ومما هو جدير بالذكر كذلك أنه ظهر فى ذلك الوقت فى مصر لأول مرة مجموعة من القصص القصيرة كتبها مصرى صميم هو « ابن الداية » . وعرفت هذه المجموعة باسم « المكافأة » . وقد ولد هذا المؤلف فى مصر عام ٣٤٠ هـ = ٥٩١ م واسمه أحمد بن يوسف .

٣ الدراسة الأدبية : وقد ظهر فى هذه الفترة مجموعة من الدراسات الأدبية والنقدية ومن بينها كتاب « النقائض » لأبى العباس أحمد بن ولاد (توفى عام ٣٣٢ هـ = ٩٤٣ م) و « أخبار الشعراء » و « شرح المعلقات » و « معانى الشعر » و « شرح الحماسة » . وجميعها لأبى جعفر النحاس .

فإذا انتقلنا إلى ميدان الدراسات اللغوية رأينا نشاطاً لا يقل عن نظيره فى سائر أنحاء العالم الإسلامى . وإن بدأ متأخراً بعض الشىء . وأول اسم يطالعنا لشخصية لغوية هامة تفد إلى مصر هو اسم عبد الرحمن بن هرمز تلميذ أبى الأسود الدؤلى واضع علم النحو – فى بعض الروايات . وقد أقام ابن هرمز بالإسكندرية إلى أن توفى عام ١١٧ هـ .

ومع مطلع القرن الثالث الهجرى غصت مصر باللغويين والنحاة ، ونشطت فيها الحركة اللغوية إلى حد كبير . وعلى رأس اللغويين الأجانب الذين وفدوا إليها نجد أسماء مثل :

١ – محمد بن يحيى اليزيدى الذى جاء مع المعتصم إلى مصر (عام

٢١٤ هـ = ٨٢٩ م) ومات بها تاركاً عدة كتب منها : « النوادر » و « المقصور والممدود » و « مختصر النحو » و « النقط والشكل » .

٢ — أبو على أحمد بن جعفر الدينورى الذى توفى فى مصر عام ٢٨٩ هـ = ٩٠٢ م . وقد كتب خلال إقامته بمصر كتاباً فى النحو سماه « المهذب » .

٣ — على بن سليمان الأخفش الذى جاء إلى مصر أكثر من مرة إحداها عام ٢٨٧ هـ = ٩٠٠ م وغادرها لآخر مرة عام ٣٠٦ هـ = ٩١٨ م ومات ببغداد عام ٣١٥ هـ = ٩٢٧ م . ومن مؤلفاته كتاب « التثنية والجمع » ، وكتاب « شرح سيبويه » فى خمسة مجلدات .

ومنذ أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع أخذت الدراسات اللغوية المصرية تشق طريقها بنفسها ، وتقف على قدميها وحدها ، وتنافس نظيراتها فى سائر أنحاء العالم الإسلامى . وظهر لأول مرة مؤلفون مصريون متفوقون ، انضمت جهودهم إلى جهود الوافدين من البلاد الأخرى فخلقت حركة لغوية نشيطة أثارت إليها انتباه العالم الإسلامى كله . ومن أشهر الوافدين فى تلك الفترة أبو بكر الدينورى وأبو جعفر أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة والأخوان الحسن والحسين بن الوليد . أما اللغويون المصريون فكانوا كثيرين ومتفاوتين فى الشهرة وفى الإنتاج العلمى ، ولكن كان على رأسهم ثلاثة هم : كراع النمل واسمه على بن الحسن الهنائى (توفى ٣١٠ هـ = ٩٢٢ م) . وابن ولاد واسمه أبو العباس أحمد بن محمد بن ولاد (توفى ٣٣٢ هـ = ٩٤٣ م) والنحاس واسمه أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل (توفى ٣٣٨ هـ = ٩٥٠ م) .

أما كراع فقد ترك آثاراً لغوية كثيرة أشهرها « المنجَّد » الذى يعالج مشكلات المشترك اللفظى ويعرض كثيراً من ألفاظه ، و « المنتخب » الذى يحوى نتفاً مختلفة لمباحث علم اللغة ومنهما نسخ مخطوطة متنوعة فى دار الكتب المصرية

وغيرها . كما بث كراع فى ثنايا كتبه آراء ناضجة فى كثير من مشكلات علم اللغة وأصوله .

وأما ابن ولاد فقد ترك آثاراً منها : « المقصور والممدود » الذى يعالج مشكلات الكلمات المقصورة أو الممدودة ، ويذكر طريقة هجائها ، ويحصر مفرداتها . وقد طبع الكتاب طبعتين حتى الآن . ومن آثاره « الانتصار لسيبويه على المبرد » الذى اتخذ جانب الدفاع عن سيبويه فى مسائل الخلاف بينه وبين المبرد . وتوجد منه نسخ مخطوطة فى دار الكتب المصرية وغيرها . وكان لابن ولاد آراء تقدمية فى كيفية تقعيد القواعد وفى أصول النحو تعد حتى الآن من أنضج ما قيل فى الموضوع .

وأما أبو جعفر النحاس فكان نسيج وحده . ولم يترك باباً من أبواب الدراسات الإسلامية إلا طرقه وألف فيه . كتب فى القراءات ، وفى التفسير والحديث ، وفى الناسخ والمنسوخ ، وفى النحو وفقه اللغة ، وفى الأدب ودوائر المعارف . وكان فى كل ما يكتب موفقاً . ومما تركه فى مجال الدراسات اللغوية : « إعراب القرآن » و « المقنع فى الخلاف بين البصريين والكوفيين » و « الكافى فى النحو » و « شرح أبيات سيبويه » و « شرح كتاب سيبويه » و « كتاب الاشتقاق » و « خلق الإنسان » و « التفاحة فى النحو » . والكتاب الأخير ذو أهمية كبيرة — فى نظرنا — بوجه خاص ، لأنه وضع تلبية لحاجة الناشئة ، وكتب فى أسلوب ميسر وبطريقة أقل ما توصف به أنها سهلة مبسطة . والكتاب يلخص النحو كله فى بضع ورقات ، ويقدم للدارس المبتدئ عصارة القواعد النحوية العملية ، منحياً جانباً كل ما لا يفيد فى تقويم النطق وتصحيح البيان ، وكل الخلافات اللفظية والمناقشات الفلسفية التى تمتلئ بها كتب السابقين . وأغلب ظننا أنه كتب بهدف تقريب نحو اللغة العربية للأجانب وبقصد مساعدتهم فى دراسته ، ولذا اختار مؤلفه له اسما جذاباً هو « التفاحة » . ويعد الكتاب ثورة على الطريقة التقليدية فى دراسة النحو العربى ، ولعله أول

كتاب يصلنا وهو يحوى تطبيقاً فعلياً للمنهج الوصفى فى دراسة اللغة . ومن أمثلة ذلك قوله :

١ ـ الفاعل مرفوع أبداً تقدم أو تأخر . وهذا يعنى أن « محمداً » فى الجملة « قام محمد » أو « محمد قام » تعرب فاعلا . وهذا يخالف التحليل التقليدى للجملة الثانية الذى يعتبر الفاعل ضميراً مستتراً تقديره « هو » ويعرب « محمد » مبتدأ والجملة من الفعل والفاعل بعده فى محل رفع خبر ذلك المبتدأ .

٢ ـ عد أبو جعفر النحاس من بين حروف الجر الكلمات « أعلى » و « أسفل » و « خلف » و « قدام » و « وراء » و « أمام » و « فوق » وأشباهها . وهذا خروج على النحو التقليدى الذى يعتبرها كلها ظروفاً . وقد كان النحاس موفقاً فى فكرته هذه وطرحه جانباً الرأى التقليدى ووصوله إلى هذا الرأى الجديد الذى ينظر إلى الأثر الإعرابى فحسب . وأى فرق بين قولنا : « الكوب على المائدة » و « الكوب فوق المائدة » ؟ لا فرق بينهما عندنا وعند النحاس وإن كان القدماء قد اعتبروا « على » حرف جر ، وما بعدها مجروراً بها . واعتبروا « فوق » ظرفاً وما بعدها مضافاً إليه .

ولم يقف دور مصر فى تلك الفترة عند التأليف والتنقيب . وإنما تجاوز ذلك إلى تمثيل الثقافة الإسلامية وهضمها ثم إخراجها فى صورة مبتكرة . وقد كانت مصر بمثابة القنطرة التى عبرت عليها الثقافة العربية من الشرق إلى الغرب ، وكانت ملتقى للدراسين من شتى البقاع ، وجامعة إسلامية يقصدها الطلاب من مختلف أنحاء العالم الإسلامى . ولم يكتب للمؤلفات المصرية الرواج داخل مصر وحدها . وإنما فى المغرب والأندلس كذلك . وحتى نهاية القرن الرابع الهجرى كانت بلاد المغرب والأندلس تعتمد اعتماداً كلياً فى دراساتها العربية الإسلامية على مصر . ولم تنضج تلك الدراسات هناك إلا على يد المبعوثين

الذين زاروا مصر ودرسوا فيها ثم عادوا إلى أوطانهم يحملون الزاد ويدرسون المؤلفات المختلفة التى تلقوها فى مصر . ومن بينها المؤلفات المصرية . وقد وجدنا أن كل مؤلفات ابن ولاد وثلاثة عشر مؤلفاً من بين مؤلفات أبي جعفر النحاس قد دخلت الأندلس فى وقت مبكر جداً قد يكون فى حياة المؤلفين أو بعد وفاتهما بقليل . كما وجدنا مؤلفات كراع النمل منتشرة جداً فى بلاد المغرب بخاصة . ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى الحقائق التالية :

١ — من بين تلاميذ النحاس — الذين استطعت التوصل إليهم — وعددهم أربعة عشر تلميذاً وجدت ثلاثة مصريين فقط . أما الباقون فمن بلاد مختلفة .

٢ — من بين الأسماء الخمسمائة الأولى فى كتاب « ابن الفرضى » تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس وجدت خمسة وخمسين اسما على الأقل لأناس درسوا فى مصر .

٣ — هناك اقتباسات كثيرة من كتب المصريين فى الكتب المتأخرة ، وأخص بالذكر ما يأتى :

(أ) فى الجزأين الأول والثانى من كتاب « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبي يوجد نحو ستين اقتباساً من أبي جعفر النحاس .

(ب) فى « صبح الأعشى » للقلقشندى نجد أكثر من مائة اقتباس من « صناعة الكتاب » للنحاس .

(ج) فى « لسان العرب » نجد أكثر من سبعمائة اقتباس من مؤلفات كراع النمل .

وقد كانت مراكز الثقافة فى مصر متعددة ومتنوعة ، وكان كل مركز منها يقوم بدوره الخاص فى نشر الثقافة الإسلامية ، وكثير منها كان مشمولا برعاية الحكام وذوى الثراء . وأشهر تلك المراكز :

١ – المسجد : وقدكان أهم مركز ثقافى فى تلك الفترة . وكانت أشهر المساجد فى مصر خلال تلك الفترة هى :جامع عمرو بن العاص ،وجامع أحمد ابن طولون،ثم الجامع الأزهر . فنى جامع عمرو كانت تلقى دروس دينية منذ عام ٣٨ هـ = ٦٥٨ م . وفيه كان الإمام الشافعى يلقى دروسه ومحاضراته ، وكذلك الإمام الطبرى . وفى عهد الإخشديين (من سنة ٣٢٣ هـ = ٩٣٤ م إلى ٣٥٨ هـ = ٩٦٨ م) كان فيه ثلاث وثلاثون حلقة خاصة بالدروس الفقهية. وأما جامع ابن طولون فقد انتقل إليه الطبرى بعد بنائه ؛ وكان أحمد بن طولون يجرى عليه الأوقاف ويخصص لعلمائه المرتبات.وبعد تشييد الجامع الأزهر انتقل النشاط الدينى إليه ، وأصبح مركزاً للدعاية الفاطمية. وليس أدل على اتساع النشاط العلمى فى ذلك الوقت من أن المقدسى الذى زار مصر فى القرن الرابع الهجرى سجل ملاحظة خطيرة فحواها أنه وجد مساجد مصر مزدحمة بالطلاب بشكل لم يره فى أى بلد إسلامى آخر . وذكر أنه عد حلقات أحد هذه المساجد فوجدها تبلغ مائة وعشر حلقات .

٢ – (صالونات) الحكام : كذلك قامت (صالونات) الحكام وذوى الثراء بدور كبير فى نشر الثقافة الإسلامية وتشجيع البحث العلمى : فكانت تعقد فيها اجتماعات دورية وحلقات علم مستمرة . وكان من العادة أن يحضر الحكام والوجهاء هذه الاجتماعات ويشاركوا فى المناقشة ويثيبوا المتفوق فيها . وقد بدأت شهرة هذه المجالس منذ قيام الدولة الطولونية وتضاعفت شهرتها فى عهد الفاطميين . ونشير بوجه خاص إلى الاجتماعات الدورية التى كانت تعقد فى (صالون) الوزير « ابن كلس » والتى كان يحضرها القضاة والفقهاء والشعراء والنحاة والمحدثون وكل ذوى الحيثية فى المجتمع . وليس هذا فحسب ، بل شاركت مصر فى الاجتماعات العلمية والمؤتمرات التى كانت تعقد فى الخارج. ومن ذلك ما حدث عام ٣٢٦ هـ = ٩٣٧ م حين انعقد مؤتمر علمى فى بغداد بإشراف الوزير الفضل بن جعفر بن الفرات ، وأرسلت مصر ممثلها الرسمى لحضوره .

٣ — دور الكتب : وقد انتشرت دور الكتب الخاصة خلال تلك الفترة وتنافس الأغنياء والعلماء فى اقتناء نوادر المخطوطات . وبناء على ما ذكر ابن خلكان كانت مكتبة العزيز الفاطمى حافلة لدرجة أنه احتاج إلى تعيين « أمين » ليديرها وينظمها . ويخبرنا المقريزى أن هذه المكتبة كانت تحوى ثلاثين نسخة من كتاب « العين » أول معجم عربى ، بينها نسخة بخط المؤلف نفسه ، كما كان يوجد بها عشرون نسخة من تاريخ الطبرى ، ومائة نسخة من معجم الجمهرة لابن دريد .

٤ — محلات الوراقة وبيع الكتب : ففضلا عن دورها فى نسخ المخطوطات وبيعها كانت مركزاً يلتقى فيه الدارسون ويتجاذبون الحديث ويديرون المناقشة . وكانت هذه المحلات تتركز فى سوق قرب جامع عمرو بن العاص وتغص بالباحثين ، وبخاصة فى زمنى الطولونيين والإخشيديين .

الباب الثانى

الخصائص اللغوية لعربية مصر

تمهيد

سنحاول فى هذا الباب أن نقدم وصفاً للغة العربية التى كانت بمصر فى الفترة موضوع الدراسة ، وأن نحدد العوامل التى تحكمت فى تشكيلها ، وتدخلت لتصبغها صبغة معينة تميزها عن سائر العربيات .

وقد وجدنا أن هناك عاملين يعدان من أهم العوامل التى تستحق الدراسة فى هذا الخصوص ، بقصد الكشف عن مدى أثرهما فى عربية مصر ، وهما :

١ — اللغة القبطية (وإلى حد ما اليونانية) .

٢ — اللهجات العربية .

كما وجدنا أن هناك عوامل ثانوية أثرت فى عربية مصر : منها عامل الميل نحو السهولة وتوفير الجهد ؛ وعامل اللامبالاة ، وعامل الاقتراض من لغات أخرى غير القبطية واليونانية ، مثل اللاتينية والفارسية والتركية . وسنتناول هذه العوامل فى ثلاثة فصول على التوالى .

وقد رأينا قبل أن نعالج هذه العوامل بالترتيب المذكور أن نبدأ بدراسة موجزة فى فصلين ، نتناول فى أولهما الصعوبات التى تعترض مثل هذه الدراسة اللغوية ، ونصنف فى ثانيهما المادة التى اعتمدنا عليها فى تحليلنا اللغوى .

وهكذا استقر إخراج هذا الباب فى خمسة فصول .

الفصل الأول

صعوبات على الطريق

الحقيقة التى يواجهها أى دارس للهجات العربية القديمة خارج الجزيرة العربية – ولحد ما داخلها – هى قلة المادة اللغوية من ناحية ، وانعدام الدراسة اللغوية المنهجية لها من ناحية أخرى . وهناك حقيقة أخرى تشمل اللهجات العربية القديمة جميعها ، وهى اختلاط مادتها بعضها ببعض ، وصعوبة عزل مادة أى واحدة منها عن غيرها ، وهى صعوبة قد تصل أحياناً إلى حد الاستحالة والتعذر . وحتى اللغويون المحليون ، الذين كان ينتظر منهم أن يسجلوا ما كان يدور فى بيئتهم من تعبيرات خاصة ، وأن يقوموا بدراسة موضوعية للمستويات اللغوية المستعملة فى أوطانهم ، سواء كانت على المستوى الأدبى ، أو مستوى الحديث العادى ، أو بين بين – حتى هؤلاء لم يلقوا بالا لهذا الجانب ، ولم يحاولوا أن يسهموا بجهوداتهم فيه . كذلك لم يعن أحد منهم بناحية التطور فى دلالة الألفاظ ، أو نطقها ، فلم يبين أى من لغويى القرن الخامس مثلا المعنى الذى يفهمه معاصروه من لفظ جمعه زميل له فى القرن الثالث مثلا إلا فى النادر . كذلك لم يعن أحد منهم بتطور نطق الألفاظ فى عصره على الرغم مما نجده فى كتاب سيبويه وفى البيان والتبيين للجاحظ من إشارات مفيدة فى هذا الموضوع ، ومن تسجيل لنماذج من التطورات التى تمس الأصوات وطريقة نطقها (١) . والسر فى عدم العناية هذا أنهم جميعاً كانوا ينظرون إلى هذا

---

(١) انظر الكتاب (ط بولاق) ٢ / ٤٠٤ وما بعدها ، والبيان والتبيين =

التطور على أنه نوع من اللحن أو المولد ، أو شيء من سقط المتاع الذى لا يصح تسجيله ، ولا يجوز إعارته أى انتباه . ولذلك نجدهم جميعاً قد وجهوا كل اهتمامهم إلى جمع المادة اللغوية القديمة التى سموها بالفصحى ، والتى وضعوا لها شروطاً ومواصفات تشمل الزمان والمكان ، وتسابقوا فى تنظيم هذه المادة ، وعرضها بطرق مختلفة .

ويبرز من بين المحاولات التى بذلت لتسجيل بعض جوانب التطور اللغوى نوعان من البحوث : أولهما : كتب اللحن والخطأ والمولد والتصحيف والتحريف . وثانيهما : كتب المعرب والدخيل . وكتب اللحن — وما لف لفها — عبارة عن رسائل صغيرة ألفت على مر العصور وفى مختلف الأصقاع التى تتكلم العربية ، بقصد علاج داء استشرى فى لغة العرب ، وهو داء اللحن والخطأ فى الكلام .وقد بدأ التأليف فيه فى عصر مبكر جداً ،ربما منذ القرن الثانى الهجرى ، وشهدت بداية القرن الثالث طائفة كبيرة من كتب هذا النوع . ويدخل فى ذلك الباب تلك الفصول التى اشتملت عليها كتب مثل «إصلاح المنطق» لابن السكيت ، و «أدب الكاتب» لابن قتيبة ، و «الغريب المصنف» لأبى عبيد ، والتى تعالج مظاهر التغيرات التى حدثت فى بعض الكلمات ، سواء

= ص ١٥ ، ١٨ — ٢٢ وبخاصة قوله «وأهل الأمصار إنما يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب ، ولذلك تجد الاختلاف فى ألفاظ من ألفاظ أهل الكوفة والبصرة والشام ومصر» (ص ١٨) ، وكذلك باب «ذكر الحروف التى تدخلها اللثغة وما يحضرنى منها» (ص ٣٤ وما بعدها) . وانظر ص ٧٠ — ٧٤ وبخاصة قوله «ألا ترى أن السندى إذا جلب كبيراً فإنه لا يستطيع إلا أن يجعل الجيم زايا ، ولو أقام فى عليا تميم وفى سفلى قيس وبين عجز هوازن خمسين عاماً . وكذلك النبطى القح .. يجعل الزاى سينا . فإذا أراد أن يقول زورق قال سورق ، ويجعل العين همزة .. » (ص ٧٠) ؛ ومقدمة ابن خلدون ص ٤٢٤ وما بعدها «فصل فى لغات أهل الأمصار» وص ٦٤٩ وما بعدها «فصل فى أن لغة العرب لهذا العهد لغة مستقلة مغايرة للغة مضر وحمير» وكذلك الفصول التالية لهذا الفصل

من ناحية اللفظ أو من ناحية الدلالة. أما كتب المعرب والدخيل فمن أشهرها: كتاب الجواليقي ، ويدخل فيها البحوث المتناثرة التي نجدها في كتب النحو واللغة.

ولكننا – مع الأسف – لا نظفر لمصر بشيء ذي بال في أي من هذين المجالين إبان فترتنا المبكرة . أما عن الجانب الأول فنحن نجد كتباً ألفت لتتبع أخطاء قطر بعينه أو شعب عربي بذاته ، ومن ذلك « لحن العامة » للزبيدى (ت ٣٧٩ هـ) ، الذى تناول فيه لحن عامة الأندلس ، و« تثقيف اللسان وتلقيح الجنان » لابن خلف الصقلى (ت ٥٠١ هـ) فى لحن عامة صقلية ، و « تقويم اللسان » لابن الجوزى (ت ٥٩٧هـ) فى لحن عامة بغداد . ومع ذلك لا نجد كتاباً يظهر فى البيئة المصرية يعالج بعض مظاهر التغيير الذى حدث فى لغة مصر سواء اعتبر هذا تطوراً طبيعياً ، أو رمى بالخطأ . وحتى لو وجد شيء من هذا النوع ، فلم يكن ليفيدنا كثيراً ، لأن مؤلفى هذا العصر اعتادوا أن ينقلوا لاحقهم من سابقهم بدون تنبيه على ذلك . فما يتعرض له الواحد منهم فى كتبه ربما لا يمثل بيئته أدنى تمثيل ، وإنما يمثل بيئات أخرى لم يهتم بالتنبيه عليها . وضرر مثل هذا النوع من البحوث المختلطة أكثر من نفعه . وأما عن الجانب الثانى فكان الاتجاه نحو دراسة النقل والتعريب من اللغة الفارسية هو الاتجاه الغالب ، ولا نجد إشارة إلى النقل أو التعريب من القبطية ، وبين أيدينا كتاب « المعرب » للجواليقى يشهد بذلك . نعم هناك إشارات سريعة إلى التعريب من لغات أخرى متعددة ، إلا أن معظم هذه الإشارات ألقى القول فيها على عواهنه ، وصدر عن غير ذى ثقة ، وعن أناس لا خبرة لهم باللغات التى يتحدثون عنها ، ولذا لا يمكن الاعتماد على أقوالهم كما سبق أن بينا بالنسبة للسيوطى فى كتابه « المتوكلى فيما ورد فى القرآن باللغة الحبشية والفارسية ... الخ » . كذلك من الأمثلة المؤسفة للعمل المرتجل ذلك البحث الذى كتبه حمزة فتح الله بعنوان « رسالة الكلمات الغير العربية (كذا) الواقعة فى القرآن

الكريم » ، والذى تنقصه دقة البحث العلمي وتمحيصه . ومن الأمثلة التى ذكرها هذا المؤلف للكلمات المستعارة من اللغة القبطية قوله :

الأولى والآخرة : القبط يسمون الآخرة الأولى ،والأولى الآخرة .

سيدهـــا : زوجها بالقبطية .

بطائنهـــا : ظواهرها بالقبطية .

وهكذا ...

وقد حاولت أن أعثر على آثار ذات بال فى مؤلفات اللغويين المصريين المبكرين فى أى من هذين المجالين ، أو فى مجال تحديد مراكز القبائل العربية التى استوطنت مصر ، وتسجيل لهجاتها ، وخصائص كل لهجة ، دون جدوى. وكل ما وجدته تصريحات مقتضبة متناثرة هنا وهناك ، لا تكاد تهتدى إليها وسط زحام الأبحاث اللغوية الأخرى . فمن ذلك ما ذكره أبو جعفر النحاس وهو كل ما عثرت له عليه بعد البحث والتنقيب الشديدين — من أن :

١ — المصريين يستعملون كلمة « إسباطة » (التى تحولت الآن إلى سباطة) بمعنى الكباسة أو العذق أو القنو (١) .

٢ — المصريين يستعملون كلمة « الجسر » بدلا من المسناة (٢) .

ولكنه لم يذكر لنا فى أى المستويات الكلامية تستعمل هاتان الكلمتان ؟ وهل لهما أصل أجنبي أوْ لا ؟

٣ — وروى القلقشندى عن أبى جعفر النحاس أنه قال فى كتابه « صناعة الكتاب » إن « الديوان » اسم للموضع الذى يجلس فيه الكتاب وإنه بكسر الدال وإن فتحها خطأ . وحيث لم يكن هناك دلالة صريحة على أن هذا الخطأ كان شائعاً فى مصر ، فمن المحتمل أن يكون من الأخطاء العامة ، أو غير الخاصة

---

(١) شرح معلقة امرئ القيس (تحقيق فرنكل ١٨٧٦) ص ٢٩.

(٢) إعراب القرآن (معهد المخطوطات ١٥ تفسير) ص ١٨٠ .

بمصر ، وهو ما نرجحه بدليل ورود هذه الكلمة فى غيره من الكتب التى عالجت أخطاء العامة أو الخاصة .

٤ ــ كذلك روى القلقشندى ــ عن نفس المصدر ــ أن الكُتّاب فى عصر النحاس كانوا ــ لصعوبة باب العدد عليهم ــ يعيبون من أعرب الحساب . ومعنى هذا كثرة الخطأ فى هذا الباب . وهى ظاهرة ملاحظة فى كثير من النصوص المصرية التى عثرنا عليها لذلك العصر . ولكن ــ مرة أخرى ــ هى ظاهرة عامة ، وليست خاصة بمصر .

ويبدو أنه كان فى عصر النحاس ــ وربما من قبله ــ حركة قوية بين المستعربين أو غير العرب ضد اللغة العربية ومن يتكلمونها أو يتعلمونها . ويبدو أن كثيراً من أناس ذلك العصر ضاقوا بقيود اللغة وقواعدها ، وعجزوا عن إتقانها وتذليل صعوباتها ، فرأوا أن مهاجمة اللغة أيسر من تعلمها ، والنيل منها أسهل من السيطرة عليها . وقد تكفل النحاس بنقل دعوى هؤلاء الشعوبية ، وانبرى للرد عليها وتفنيدها فقال : « وقد صار أكثر الناس يطعن على متعلمى العربية جهلا وتعدياً حتى إنهم يحتجون بما يزعمون أن القاسم ابن مخيمرة قال : النحو أوله شغل وآخره بغى . قال : وهذا كلام لا معنى له لأن أول الفقه شغل ، وأول الحساب شغل ، وكذا أوائل العلوم . أفترى الناس تاركين العلوم من أجل أن أولها شغل ؟ قال : وأما قوله : وآخره بغى ، إن كان يريد به أن صاحب النحو إذا حذقه صار فيه زهو ، واستحقر من يلحن ، فهذا موجود فى غيره من العلوم من الفقه وغيره ، فى بعض الناس وإن كان مكروهاً . وإن كان يريد بالبغى التجاوز فيما لا يحل فهذا كلام محال ، فإن النحو إنما هو العلم باللغة التى نزل بها القرآن ، وهى لغة النبى صلى الله عليه وسلم وكلام أهل الجنة وكلام أهل السماء . ثم قال بعد كلام طويل : وقد كان الكتاب فيما مضى أرغب الناس فى علم النحو ، وأكثرهم تعظيما للعلماء ، حتى دخل فيهم من لا يستحق هذا الاسم ، فصعب عليه باب العدد ، فعابوا

من أعرب الحساب . وبعدت عليهم معرفة الهمزة التى ينضم وينفتح ما قبلها، أو تختلف حركتها وحركة ما قبلها فيكتبون يقرؤه بزيادة ألف لا معنى لها (١) ... ». والذى يهمنا من هذا ما يسجله من وجود ضيق بين المتعلمين بقواعد اللغة ، وصعوبة أبواب النحو ، وما يستتبعه ذلك من محاولات لكسر تلك القيود ، والتخفف من قسوتها . وهو ما حدث بالفعل وكان سبباً من أهم الأسباب التى غيرت فى شكل اللغة .

وقد وجد لكراع (على بن الحسن الهنائى المصرى) إشارات خاطفة إلى بعض تعبيرات مصرية ، وإن كانت كلها عربية فصيحة ، أو عربية محرفة لا أثر للأجنبي فيها . ولكن لم يلتزم كراع أن يبين لنا فى أى مستوى كلامى كانت تشيع هذه العبارات ، ولم يوضح صراحة ما إذا كانت هذه من اللهجات المحلية أو اللغة المشتركة . ومن ذلك قوله :

١ — ويقال للذى يوزن به الصنجة والعامة تقول السنجة .

٢ — الخطاف العصفور الأسود الذى تدعوه العامة عصفور الجنة .

٣ — يقال رف الحاجب اختلج .

٤ — يقال فش القفل إذا فتحه بغير مفتاح .

٥ — يقال فحم الصبي يفحم فحوماً وفحاماً إذا بكى حتى ينقطع صوته . (٢)

وهناك صعوبة أخرى تواجه من يريد بيان الخصائص اللغوية لعربية مصر فى تلك الفترة السحيقة . وهى أن كل المادة التى بين أيدينا وصلتنا عن طريق الكتابة . ومن المعروف أن الرموز المكتوبة لا تمثل إلا قدراً ضئيلا من اللغة .

---

(١) انظر صبح الأعشى ١ /١٧١

(٢) انظر — على سبيل المثال — المنجد فى اللغة لكراع (مخطوط) صفحات ١٣٦ و ١٣٧ و ١٨٦ .

فهى تخفى أكثر مما تظهر وبخاصة حين تستعمل الرموز الكتابية العادية لا الرموز الصوتية الدقيقة بعض الشىء . ولم يشذ عن ذلك إلا بعض نصوص قليلة عثر عليها فى دير القديس مكاريوس حيث كتبت بحروف قبطية تمثل الصوت المنطوق إلى حد كبير (١) .

وصعوبة أخرى هى عدم استطاعة القيام بمسح جغرافى لمناطق اللهجات فى مصر ، وفصل اللجهات الإقليمية بعضها عن بعض ، أو عمل ما يمكن أن يسمى بالأطلس اللغوى ، نظراً لاختلاط المادة اللغوية التى وصلتنا من ناحية ، واندثار معظمها من ناحية أخرى ، وعدم إمكان تسجيل مادة جديدة لطول العهد بفترة دراستنا ، والتطور الكبير الذى يتوقع حدوثه بعد ذلك . ولهذا لم يكن هناك مفر من أن نعالج المادة اللغوية التى جمعناها باعتبارها وحدة واحدة ولا نشير إلى الخصائص المحلية أو الإقليمية إلا إذا كان فى يدنا الدليل على ذلك .

وهناك صعوبة أخيرة هى أن الدراسات القديمة جميعها قد ألقت ثقلها فى جانب اللفظ المفرد وبناء الكلمة ، ولم يكن منها ما اهتم بنظام الجملة وجانب النحو والإعراب ولذلك يندر أن تجد إشارة إلى تغيير من هذا النوع .

---

(١) انظر :

Fragments of an Arabic M.S. in Coptic Script, ed. by G. Sobhy.

والملحق رقم ١ للجزء الأول من كتاب :

New Coptic Texts from the Monastery of Saint Macarius.

الفصل الثانى

مادة التحليل اللغوى

تتخذ مادة البحث التى اعتمدنا عليها فى دراستنا اللغوية صوراً متعددة ، كما أن تاريخها محدد ، ومعروف وقتها الذى كتبت فيه بدقة .

وعلى الرغم من أننا اخترنا القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) كقرن التحول النهائى فى لغة الكتابة والحديث من اليونانية والقبطية إلى العربية ، فقد رأينا أن ندخل فى التحليل اللغوى كتابات القرنين الثانى عشر والثالث عشر كذلك لعدة أسباب ، منها :

أولا : امتداد الفترة الخصبة فى كتابات الأقباط العربية إلى نهاية هذين القرنين .

وثانياً : لأن معظم المخطوطات وأوراق البردى العربية التى كشفت حديثاً تتعلق بفترة تمتد نحو سبعه قرون بعد الفتح العربى لمصر .

وثالثاً : لأننا رجحنا احتمال بقاء اللغة القبطية فى بعض الأماكن النائية لمدة قرن أو قرنين آخرين ، ولمدة أطول فى داخل الأديرة وبين الرهبان ، أو كلغة متعلمة بين العلماء الأقباط . ومعنى هذا أن اللغة القبطية ظلت خلال هذه الفترة أداة فى يد بعض الناس لدرجة محدودة وإن لم يحرمها ذلك الحياة فى عقول كثير من الباحثين والمثقفين من رجال الدين الأقباط . ومن الملاحظ أن معظم كتابات الأقباط العربية فى تلك الفترة ، قام بها رجال الدين أو العلماء

المتعصبون للغتهم وقوميتهم القديمة ، ممن كانوا يعرفون القبطية إلى جانب العربية . ومعنى هذا أنهم كانوا فى كتاباتهم العربية متأثرين بثقافتهم القبطية، وبمعرفتهم للغة القبطية وغيرها من اللغات الأجنبية ، كاليونانية والسريانية .

ومن أجل هذا لا يصح إسقاط القرنين الثانى عشر والثالث عشر من حسابنا إذا أردنا أن ندرس آثار اللغة القبطية على عربية مصر ، وأن نؤرخ لحركة التأثير والتأثر من كلا الجانبين على الآخر .

ولكى ندرس عربية مصر فى تلك الفترة ، نحن فى حاجة إلى نماذج عديدة تمثل المستويات المختلفة للغة . فما لاشك فيه أن لغة الكتابة تختلف عن لغة الحديث ، ولغة الكتابة نفسها تتفاوت من كاتب إلى كاتب ، وكذلك لغة الحديث تختلف من متكلم إلى متكلم . ولو جارينا علماء اللغة المحدثين لقلنا إن لكل شخص لغة خاصة ، ولكل متكلم لهجة معينة ، ولهذا فهم لا يرضون فى تقسيمهم لمستويات اللغة بمستوى دون المتكلم الفرد نفسه . بل منهم من يذهب إلى أبعد من ذلك فيقسم العادة الكلامية للشخص إلى مستويات متعددة تختلف بحسب حالة المتكلم الراهنة ، ودوره الذى يلعبه فى المجتمع . ومن السهل على المرء أن يميز فى كلام الشخص الواحد بين عدة مستويات ، حين يتكلم مع أسرة صديقه ، أو مع غرباء ، أو مع أفراد ذوى مراكز اجتماعية مختلفة ، أو فى مجال العمل ... الخ .

ولصعوبة هذا النوع من الدراسة أو استحالته بالنسبة للفترة التى ندرسها ، فضلا عما يؤدى إليه من نتائج جزئية خاصة ، فإننا آثرنا أن نتجه فى مجال دراستنا إلى الخصائص العامة ، وأن تكون نظرتنا دائماً كلية تصور ما يمكن أن يسمى باللغة أو اللهجة فى خطوطها العريضة وظواهرها المشتركة .

والمادة المكتوبة التى اعتمدنا عليها فى تلك الدراسة كثيرة ومتنوعة وتشمل ما يأتى :

أولا : أوراق البردى العربية : وكان أول ما عثر عليه من هذه الأوراق ورقتان مكتوبتان باللغة العربية فى مكان قرب أهرام سقارة وذلك عام ١٨٢٤م. وقد سلمت الورقتان إلى قنصل فرنسا بالقاهرة يومئذ فاهتم بها وأرسلها للبارون سلفستر دى ساسى المستشرق المتخصص فنشر ما بالورقتين . وبذا بدأت دراسات أوراق البردى ترى النور ، وأخذ هذا النوع من البحوث يتطور منذ أوائل القرن العشرين حتى أصبح علماً مستقلا له متخصصوه والمشتغلون به.

وبعد مضى خمسين سنة من الكشف السابق ، وجد بالفيوم كمية كبيرة من أوراق البردى نقل معظمها إلى المكتبات الأوربية ، ومن المحتمل أن تكون محفوظات دار الكتب المصرية من هذه البرديات متصلا بهذا الكشف ، أو تكون جزءاً منه . ثم اكتشفت بعد ذلك مجموعات أخرى وجدها الباحثون عن « السباخ » بين تلال أهناس وإخميم والأشمونين والبهنسا وكوم أشقاو وميت رهينة وإدفو .. ومنها ما عثر عليه فى خرائب الفسطاط .

ومن الصعب أن نحدد عدد الأوراق البردية العربية الموجودة فى مكتبات العالم الآن نظراً لعدم تمام الفهارس . ولكن يقدرها البروفسر جروهمان خبير البرديات العربية بنحو ستة عشر ألف قطعة موزعة على مكتبات كثيرة من دول العالم مثل فينا ومصر وتونس وألمانيا وإنجلترا وفرنسا وإيطاليا والنرويج وروسيا وتركيا والولايات المتحدة الأمريكية .

ويقول البروفسر جروهمان إن أوراق البردى العربية ذات الصبغة الأدبية قليلة بالنسبة لمقابلتها فى البرديات اليونانية (١) . وتوافقه السيدة نابية أبوت فى هذا الرأى إذ تقول : إن « وثائق البردى التى اكتشفت ونشرت معظمها يتعلق بالإدارة والاقتصاد . أما أوراق البردى الأدبية فنادرة جداً ، وهى عبارة

(١) انظر جروهمان ص ٥ من كتابه : From the World of Arabic Papyri

عن شذرات متفرقة . وقد بذلت جهود قليلة جداً لدراستها حتى الآن (١) »:
ومما عثر عليه فى مجال الأدب ورقة من ديوان شعر ، وأبيات متناثرة ، وأحياناً قصائد كاملة . كذلك عثر على قطع من كتاب فى النحو وهى محفوظة فى مجموعة مكتبة شيكاغو (٢) :

وكثير من الوثائق التى عثر عليها وجد متلاصقاً متماسكاً إلى حد يقرب من التحجر ، إلى جانب ما وصل متمزقاً كله أو بعضه بفعل الأرضة أو الرطوبة. ولكن إلى جانب هذا توجد — لحسن الحظ — قطع سليمة يمكن قراءتها بسهولة.

وتغطى هذه الوثائق فترة تزيد على سبعة قرون من عام ٢٢ للهجرة إلى عام ٧٨٠ هـ . وإذا كان لهذه الوثائق قيمة خاصة بالنسبة للمؤرخ ودارس الحضارة الإسلامية فهى من الأهمية بمكان كذلك لدارس اللغة ، وهى ثروة نفيسة من المادة اللغوية قلما يجود التاريخ بمثلها . ويمكن بدراسة هذه الوثائق الوصول إلى نتائج لغوية وفلولوجية هامة سواء من ناحية أسلوب الكتابة الكلاسيكية فى تلك الفترة ، أو فى أسلوب الكتابة الإدارية أو الرسائل الخاصة ، أو الأسلوب العامى (٣) .

ويكفى للتدليل على قيمة هذه الوثائق أنها نقضت ما هو شائع بين الباحثين من أن اختراع الإعجام تم على يد يحيى بن معمر فى النصف الثانى من القرن الأول ، فقد وجدت أقدم وثيقة بردى عربية وهى مؤرخة عام ٢٢ هـ وهى تشتمل على نقط فوق الحروف : ش ، ز ، ذ ، خ ، ن .

وأهم الوثائق العربية التى رجعنا إليها تلك التى نشرها Adolf Grohmann تحت عنوان :

---

(١) أنظر نابيه أبوت فى مقدمة كتابها : Studies in Arabic Literary Papyri

(٢) جروهمان : المرجع قبل السابق ص ٥ — ١٠ .

(٣) انظر جروهمان : المحاضرة الأولى عن الأوراق البردية العربية، كذلك مراد كامل «حضارة مصر فى العصر القبطى» ص ٧٠ .

1 — Arabic Papyri in the Egyptian Library.

2 — From the World of Arabic Papyri.

والتى نشرتها Nabia Abbott تحت عنوان :

1 — The Kurrah Papyri.

2 — Studies in Arabic Literary Papyri.

وإلى جانب هذا وذاك توجد مجموعة من النصوص القبطية عثر عليها فى دير البلاعزة حققها الدكتور Kahle ، وهى تغطى فترة محدودة جداً نحو مائة سنة من ٦٧٥ إلى ٧٧٥ م . وهذه الوثائق وإن كانت قد كتب معظمها بالقبطية ففيها نسبة نحو ٦ ٪ كتبت باللغة العربية .

وإليكم نماذج من هذه البرديات راعينا فيها التنوع لتشمل أكثر من مستوى كلامى :

١ — بسم الله الرحمن الرحيم ، من قرة بن شريك إلى صاحب أشقوه. فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد فانظر الذى كان بقى على أسقف كورتك مما فرض عليه عبد الله بن عبد الملك .. فعجل به مع رسولى ورسول الأسقف . ولا توخرن من تلك البقية قليلا ولا كثيراً والسلم على من اتبع الهدى .

وكتب فى ربيع الأول سنة ٩٠ .

٢ — بسم الله الرحمن الرحيم .من قرة بن شريك إلى صاحب أشقوه. فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو . فإن إبشادة بن أبنيلة قد أخبرنى أن له على أنباط (فلاحين) من أهل كورتك (خمسة) عشر ديناراً ، فزعم أنهم غلبوه على حقه .فإذا جاءك كتابى هذا ، وأقام البينة على ما أخبرنى فاستخرج له، ولا تظلمن عبدك إلا إن كانت بينته غير ذلك فاكتب لى . والسلم على من اتبع الهدى .

وكتب مسلم بن لبنن ونسخ الصلت :

فى صفر سنة إحدى وتسعين .

٣ — من قرة بن شريك إلى بطرس جرجه القسطال (حاكم المدينة) .

قد قبضت منك المال الذى من مدينة « أهناس » عما بِقَبَالك من الغرامة مما أدرك عليك من الجباية ... الخ .

٤ — من قرة بن شريك إلى بسيل صاحب أشقوه . فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد فإنك قد علمت الذى كتبت إليك به من جمع المال الذى قد حضر من عطا الجند وعيالهم وغزو الناس . فإذا جاك كتابى هذا فخذ فى جمع المال ... ثم عجل إلى بما اجتمع عندك من المال بالأول فالأول ، ولا أعرفنك ما حبستنا بما قبلك ، فإن أهل الأرض قد فرغوا من الحرثة وعلموا ما عليهم ... فعجل عجل بما اجتمع عندك من المال فإنه لو قد قدم إلى المال قد أمرت للجند بعطائهم إن شاء الله . فلا تكونن آخر العمال بعثا بما قبلك ، ولا ألومنك فى ذلك والسلم على من اتبع الهدى .

٥ — بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من قرة بن شريك لأهل شبرا بسيرو من كورة أشقوه . إنه أصابكم من جزية سنة ثمان وثمانين مائة دينار وأربعة دنانير وثلثى (كذا) دينار عدداً ، ومن ضريبة الطعام أحد عشر إردب قمح وثلث إردب .

وكتب راشد فى صفر سنة ٩١ .

٦ — وهذا خطاب مؤرخ عام ٢٤١ هـ يتحدث عن هجوم الأسطول البيزنطى على دمياط :

يابا حفص . لو رأيت الناس فيه عندنا اليوم من التخليط والسخرة . يوخذ النواتية وغير النواتية . وكلمن قدروا عليه أخذوه . يدخلوا كل يوم جماعة من كل موضع . أسأل الله الفرج من عند رحمته . والأمير — أيده الله— قد خرج إلى المحلة ودمياط وهو أول يوم من مسرى ، وأخرج معه جماعة

من الجند . وذلك أنه ورد عليه كتاب من أمير المؤمنين — أعزه الله — يشدد عليه أن يريح . عندى رسم كتاب لا أقدر أن أكتب به إليك ... الخ ..

٧ — وهذه وثيقة من القرن الثالث الهجرى عن تسليم بضائع ودفع نقود :

بسم الله الرحمن الرحيم . حفظكم الله وأبقاكم وأمتع بكم وأتم نعمه عليكم ودفع السو عنكم وعنا وعن جميع أمة محمد إنه على ذالك قادر برحمته. قد بعثت إليكم مع ميمون المكارى بصرّة فيها اثنين وأربعين دينر شهرية لى . وفيها دينرين لحمد بن حبة . ومعهأ فى الصرة صرة لسلمن بن داود .. فانظرو إذا وصلت إليكم أن تثبتو إلينا بوصلها إليكم إن شاء الله . وانظرو أن تشترو لى منديلين شقاق مختص ومنديلين رباط مختص . وأنا باعث بتمام خمس مناديل حتا يكفى ثلثة رباط ومنديلين شقاق جياد . فإن الشقاق الذى بعثت به وحيش جداً . فعليك بالجيد فإن الجيد كويس ... انظر حفظك الله يابا على ألا تشترى إلا الجيد من الشقاق فقد نفر الناس من الوحيش . وقد كتبت إليك غير كتاب يبعث إلىّ بالقلة الحائج فلم تفعل فيخفى على الاما عجلتها. واشترى لى أربعة قلال صغار للجارية تستقى بهم الما فإنى أحتاج إليهم وتسرنى بذالك ...

٨ — وهذه وثيقة كتبت فى القرن الرابع الهجرى :

بسم الله الرحمن الرحيم . وصل كتابك يا شيخى وسيدى .. وغمنى ما ذكرته من الأحوال الذى شرحتها لى مما ذكرت من الخراب الذى نزل بناحيتك عمرها الله ببقايك .. لقد كنت على قلق عظيم وارتجاف شديد لحبس كتابك عنى وبطؤ خبرك على حتى .. ورد بعد ذلك كتابك فزال جميع همى.. وذكرت يا سيدى أيدك الله أمر القمح وشدة حاجتك إليه وأن أتسلف لك من عند عطا أو جبارة أو غيرهم ممن أعلم أن عندهم شيا . فوالله العظيم شانه القوى سلطانه لقد عظم على مكاتبتك لهم تسئلهم مثل هذا المقدار حيث

لم يكون عندى أنا شي أغنيك بـ ـن سوالهم ... وبالله العظيم لقد أحضرت عطا وجبارة وحسين وأولاد عتيق عبد الرحـن وآخوه وأخرجت لهم الدنانير وسألتهم أن يبيعونى لك المقدار الذى ذكرته بأى سعر أحبوه فبالله إنكان واحد منهم قر لى بمد واحد فضلا عما سواه . وقاموا وبقيت الدنانير بين يدى . ووكلاك حضر مثل هذا .. فكيف تسمح نفوسهم يسلفو شي وياخذود وقت الغلة ...

٩ — وهناك إلى جانب ذلك مخطوطة فريدة من نوعها نشرها الدكتور جورجى صبحى تحت عنوان :

New Texts from the Monastery of Saint Macarius.

وتقع فى ٣٣ ورقة كاملة و ٦ ورقات ممزقة وورقةصغيرة ، وترجع إلى أواخر القرن الثالث عشر أو القرن الرابع عشر . وأهم ما يميز هذه المخطوطة أن لغتها عربية مكتوبة بحروف قبطية ، وممثلة فيها أصوات العلة إلى جانب الأصوات الساكنة . وترينا هذه المخطوطة — إلى حد كبير — كيف كانت تنطق عربية مصر فى وقت كتابتها . ولغتها مزيج من العامية والفصيحة . وإليكم اقتباساً من هذه المخطوطة :

احفظ نفسك أن لا يسبي عقلك فى ذكر خطاياك القديمة . بل اذكرها واندم عليها لئلا يذهب منك الاتضاع . فإن ذلك ينقيك من الخطية . لا تكن مناقض تحب تقيم كلمتك لئلا يسكن فيك الشر . لا تجعل نفسك حكيم برأى نفسك لئلا تقع فى أيدى أعداك . عود لسانك يقول اغفر لى والاتضاع يأتيك . إذا جلست فى قلآيتك (بيت خلوتك) فاهتم بهذه الثلاثة خصال ، دائماً أبداً : عمل يديك ودرس مزاميرك وصلاتك . اجعل فى نفسك وذكرك أن ليس بقالك فى الدنيا .

ثانياً : كتب ألفها علماء متخصصون فى الدراسات اللغوية أو الأدبية ، ويمثل أسلوبها المستوى الرفيع فى الكتابة فى ذلك العصر . وقد اخترنا منها ما يأتى :

١ – « المكافأة » لأحمد بن يوسف المعروف بابن الداية (ت نحو سنة ٣٤٠ هـ) الذى هاجر أبوه من بغداد إلى مصر وأصبح من جلة الكتّاب بها .

٢ – « أخبار سيبويه المصرى » لابن زولاق الليثى المصرى (ت سنة ٣٨٦ هـ) :

٣ – « الرسالة » للإمام الشافعى . ومن المعروف أن الشافعى دخل مصر سنة ١٩٩ هـ ومات ودفن بها سنة ٢٠٤ هـ ، وقد ألف كتابه هذا بمصر . وقد وصف محقق الكتاب المرحوم الشيخ أحمد محمد شاكر أسلوب الشافعى فقال : « لغته حجة لفصاحته وعلمه بالعربية .. وأصل الربيع من كتاب الرسالة أصل صحيح ثابت ، غاية فى الدقة والصحة . فما وجدناه مما شذ عن القواعد المعروفة أو كان على لغة من لغات العرب لم نحمله على الخطأ ، بل جعلناه شاهداً لما استعمل فيه » .

٤ – مؤلفات علماء اللغة المصريين الثلاثة الذى اشتهروا فى مصر خلال القرن الرابع الهجرى وهم : كراع (ت سنة ٣١٠ هـ) ؛ وابن ولاد (ت سنة ٣٣٢ هـ) ، وأبو جعفر النحاس (ت سنة ٣٣٨ هـ) . وإليكم نصوصاً مختارة من هذه الكتب :

١ – من « المكافأة » لابن الداية :

وحدثتنى أم آسية قابلة أولاد خمارويه بن طولون .. أنه تزوجها وأختها أخوان ، فأقبلت حال زوج أختها ، وأدبرت حال زوجها . قالت : وتوفى زوجها بأسوأ حالة وخلف لها بنات ..: قالت فكنت أجاهد فى مؤونة ولدى . إذا وقف أمرى صرت إلى أختى فقلت أقرضينى كذا وكذا استحياء من أن أقول لها هبى لى . ودخل شهر رمضان فلما مضى نصفه اشتهوا على صبيانى حلوى فى العيد . فصرت إلى أختى فقلت لها : أقرضينى ديناراً أعمل به للصبيان حلوى فى العيد . فقالت يا أختى تغيظينى بقولك أقرضينى ، وإذا أقرضتك من أين تعطينى . أمن غلة دورك أو بستانك ؟ لو قلت هبى لى كان

أحسن . فقلت لها أقضيك من لطف الله تعالى الذى لا يحتسب ، وجوده الذى يأتى من حيث لا يرتقب . فتضاحكت وقالت : يا أختى هذا والله من المنى ، والمنى بضائع النوكى . فانصرفت عنها أجرُّ رجلى إلى منزلى .

٢ – من « أخبار سيبويه المصرى » لابن زولاق :

وسمعت سيبويه يقول وقد جرى ذكر ابن المدبر عامل خراج مصر فقال : لقد بلغنى عنه أنه كان سائراً فى جمعه وعديده ، ورجاله وجنوده ، حتى وقفت له امرأة معها أطفال فقالت له : هؤلاء أطفال فلان وقد طال حبسه وهو فقير . فالتفت إليها بفظاظة وغلظة وقال : لا يخرج من الحبس إلا بأداء ما عليه .. فأنكر كل من حوله الكلام فى أنفسهم . فلم تمض جمعة حتى قبض عليه أحمد بن طولون وسلمه إلى محمد بن هلال عامل خراجه وقال : قيده وغله وألبسه جبة صوف منقعة فى دهن الأكارع مختومة ، وأوقفه فى الشمس على مزبلة على باب دارك . ففعل به ابن هلال ذلك .

٣ – من « المقصور والممدود » لابن ولاد :

فأما المقصور الذى يسمى منقوصاً فهو ما كانت ألفه التى فى آخره مبدلة من ياء أو واو وانفتح ما قبلهما ، وكانت فى موضع حركة فأبدل منها ألف نحو ملهى ، ألفه مبدلة من واو لأنه من اللهو ، ومرمى ألفه مبدلة من الياء لأنه من الرمى . والأصل فيها ملهو ومرمى ، فلما تحركت الواو والياء وانفتح ما قبلهما أبدل منهما ألف . وكذلك عصا ورحى .. وإنما سموا عصا ورحى وما شاكل ذلك منقوصاً .. من أجل أن الألف أبدلت مكان الياء والواو .. فلم يدخلها رفع ولا نصب ولا جر .. فهذا وجه نقصانها .

٤ – من كتاب « المنجد » لكراع :

قال أبو الحسن على بن الحسن الهنائى : هذا كتاب ألفته فيما اجتمعت عليه

الخاصة والعامة من الألفاظ التى عمّت مرائيها وخصت معانيها ، وجعلته ستة أبواب :

الباب الأول منها فى ذكر أعضاء البدن من الرأس إلى القدم .

الباب الثانى فى ذكر صنوف الحيوان من الناس والسباع والبهائم والهوام .

الباب الثالث فى ذكر الطير الصوائد منها والبغاث وغير ذلك .

الباب الرابع فى ذكر السلاح وما قاربه .

الباب الخامس فى ذكر السماء وما يليها .

الباب السادس فى ذكر الأرض وما عليها . وفى هذا الباب ٢٨ فصلا على عدد حروف الهجاء من الألف إلى الياء. وأثبتّ فى كل باب منها ماقصدت له من الحروف المتشابهة بأجناسها وما سنح من الشواهد عليها مما يكون فيه الدلالة دون الإكثار والإطالة . وبالله التوفيق والتسديد ومنه العون والتأييد .

ثالثاً : كتب ألفها علماء أقباط ظلوا محتفظين بدينهم ، وتعلموا اللغة العربية لسبب أو لآخر وأتقنوها ، ولكن ظلت كتاباتهم تعكس خصائص معينة وتبدو عليها المسحة الأجنبية . وقد اخترنا من بين هؤلاء العلماء :

١ — سويرس بن المقفع (القرن ٤ هـ) فى كتابه : «سير الآباء البطاركة».

٢ — سعيد بن بطريق (القرن ٤ هـ) فى كتابيه : « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » و « البرهان » .

٣ — الشيخ أبو صالح الأرمنى الذى هاجر إلى مصر واستوطن بها (القرن ٦ هـ) وله كتاب مشهور فى التاريخ .

٤ — مجموعة من العلماء الأقباط وجدوا فى القرنين ٦ و ٧ هـ وتركوا مؤلفات باللغة العربية معظمها يتناول النحو القبطى والتعاليم المسيحية. وعلى رأسهم :

(أ) أولاد العسال . وأصلهم من بلدة سدمنت من صعيد مصر من عائلة رجل اسمه أبو البشر يوحنا الكاتب المصرى . وقد شغل بعض أولاد العسال مناصب كبيرة فى الحكومة . وألفوا كتباً فى الديانة المسيحية باللغة العربية . وترجموا بعض الكتب الدينية من اللغة القبطية إلى اللغة العربية ، وألفوا بعض الكتب فى الغرض المتقدم . ويبدو من كتبهم أنهم أخذوا بحظ وافر من الثقافة الإسلامية . واشتهر بينهم الصفى ابن العسال وله مجموع يسمى « المجموع الصفوى » . وهو كتاب ضخم ألف فى فقه المذهب الأرثوذكسى ، وقد رجعنا إليه . وللأسعد ابن العسال أرجوزة فى المواريث جاء فيها :

الشكر لله الوحيـــد الذات ... سبحانه مثلث الصفـــات
أحمده حمدا كما هو أهلـــه ... إذ فاض بحر جوده وفضله
أزيد فى التمجيـــد والتسبيـــح ... لابن الإله السيـــد المسيح

ومنها :

يأيهـــا الطالب علم الشرع ... فى الإرث خذ مختصرا من فرع
اسمع هديت أفضل السبيـــل ... جملته نظما بلا تفصيـــل
ابدأ بما يصلح للأكفـــان ... والقبر والحمال والقربـــان
أوف الديون قبل أن تقسما ... فالشرع قد صيره مقدمـــا

ولأبى الفضل بن العسال معجم سماه « السلم المقفى والذهب المصفى » . وهو معجم قبطى عربى رجعنا إليه . وللمؤتمن بن العسال كتاب فى نحو اللغة القبطية سماه « المقدمة » رجعت إليه .

(ب) أنبا يؤانس (يوحنا) أسقف سمنود المشهور باسم السمنودى ؛ وله مقدمة أجرومية و سلم (مجموع كلمات) . وقد رجعت إلى مقدمته فى نحو اللغة القبطية .

(ج) الوجيه القليوبى الذى ألف كتاباً أسماه « الكفاية فى نحو اللغة القبطية » وقد رجعت إليه :

(د) الشيخ الرئيس ابن كاتب قيصر الذى ألف كتاباً فى نحو اللغة القبطية سماه « التبصرة » ، وقد رجعت إليه .

(ه) ابن الدهيرى الذى ألف « مقدمة فى نحو اللغة القبطية » رجعت إليها .

(و) ابن كبر شمس الرياسة أبو البركات الذى ألف « السلم الكبير » وهو فى تفسير كلمات قبطية بالعربية ، مرتبة على المعانى وهى على أبواب . وقد رجعت إليه كذلك . وله إلى جانب ذلك مجموعة من الخطب الدينية . ويبدو من مؤلفاته أنه واسع الاطلاع على التاريخ والأدب العربى وعلوم اللغة العربية .

والظاهرة التى تلفت النظر فى مؤلفات هؤلاء أن معظمهم لم يكن متمكناً من اللغة العربية . وكان أسلوبه ركيكاً أو أشبه بالأسلوب الدارج منه بأسلوب الكتابة ، وإن تفاوتوا فى ذلك بشكل ملحوظ . ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا القليلون جداً الذين يصعب تمييز كتاباتهم من كتابات العرب أو المسلمين .

ولكثرة ما ظهر من إنتاج فى هذه الفترة سمى بعضهم القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين (٦ و ٧ ه) بالعصر الذهبى لآثار الأقباط الفكرية .

وإليكم نماذج مختلفة لكتابات هذه المجموعة :

١ — من « المجموع الصفوى » لابن العسال :

باسم الأب والابن والروح القدس إله واحد ، له المجد دائماً إلى الأبد . آمين . الحمد لله الذى شرفنا بأفضل الإيمان والأعمال ، وثقف أفعالنا الظاهرة والباطنة بشريعتى المبدأ والكمال . وبعد : فإن هذا الكتاب مجموع من الكتب الإلهية ، والقوانين البيعية ، ومما فرعه العقل عليها ، ورده القياس إليها ،

جمعاً يخلو مع الاختصار من الإخلال : ويجمع بين فائدتى التفصيل و الإجمال. أعتضد فيه بمجموعات جمعت ببصيرة وتوفيق واجتهاد ، وأنتخب من موضوعات وضعها من له فى التصنيف خبرة وتحقيق واعتياد .

٢ — من «سير الآباء البطاركة» لابن المقفع :

فشال الدبوس ليضرب أبى على رأسه فقدم رأسه إليه . فلما أراد أن يضربه صاحوا عليه جماعة من أصحابه المستخدمين : ولم يدعوه يضربه . وكان جميع العسكر يقولوا بلسانه حقاً إن هذا الأسقف نعم الخادم لربه . ثم جاء رسول أبى قائلا ادخلوا بجميعهم فقد استدعاهم الملك ، فدخلنا جميعاً فكان مروان جالس على شاطىء البحر .. فأمر أن يجعلونا على يساره فى ناحية مفردة ، وأمر أيضاً بإحضارنا وتسليمنا إلى قوماً آخرين غير الذين جابونا من الإسكندرية .. فلما حميت الشمس أعد لنا ذلك الأمير آلة العذاب .. وحمل على كل مركب ثمانين رجل .. وكانوا الخراسانيين قد جابوا مراكب عدة إلى مصر ، فلما جاءت عشرة ساعات من ذلك اليوم تقدم إلى يزيد الذى نحن عنده ... إلخ ..

٣ — من «تاريخ الشيخ أبى صالح الأرمنى» :

ورجع طلع إلى الأب البطرك .. فقال له البطرك إيش رجع جانبك إلى عندى يا محروم بهذا الزى المغير عن صنعتنا ، ومد يده إلى رأسه وطرح البرطلة .. وإن أحد تلاميذ البطرك أعاد البرطلة على رأسه فصعب ذلك على البطرك .. وقام من عنده وخرج مخزى لا يعرف كيف يمشى .. ثم إن بطرك الملكية شيعه دير القصير وأقام به هو وأصحابه ... إلخ .

٤ — من « مقدمة فى نحو اللغة القبطية» لابن الدهيرى :

الحمد لله العظيم العلى ، القديم الأزلى ، ذى الطول المتين ، والفضل المبين ، الذى أصفى موارد حكمه ، وأضفى ملابس نعمه ، للعاملين والعالمين ، وأسدل

جلابيب كرمه ، وأسبل شآبيب ديمه . على العاكفين العارفين ، وأنار بصائر أولى الهداية بنور الحقيقة ، وعلم اليقين ، وعم فضله ، وخص فيضه للعاملين والمرسلين ، وقسم المواهب بين براياه . على قدر استعداد القابلين والقائلين ، وميز الإنسان بالعقل والنطق عن بقية الحيوانات غير الناطقين ...

٥ – من «مقدمة فى نحو اللغة القبطية» للسمنودى :

كان لما كانوا آباء فضلاء لأجل عدم تفسير اللسان القبطى قد تقدموا وعملوا سلماً للتفسير ، وجمعوا فيه جميع الكلام من الأسماء والأفعال ، وقصدوا بذلك كمال معرفة التفسير . وإن بعض الناس لما استكثروا مقدار جملة الكتاب وأنه لا يحصل لهم قصد فى جزء منه دون حفظ جميعه فلذلك ملوا وكسلوا فقضى الحال إلى أن أعمل تفسير كلام كتب البيعة أعنى الحديثة وهم الأناجيل المقدسة ورسائل بولص الرسول .. وما انضاف إليهم مساقاً على فصوله أولا فأولا .. وجعل إنجيل يوحنا فاتحته لأجل سهولة كلامه ليسهل للطالب القصد بذلك .

رابعاً : متفرقات ونماذج نثرية شعرية متناثرة فى كتب الأدب والتاريخ واللغة

أذكر من بينها «صبح الأعشى» للقلقشندى ، و«الولاة والقضاة» للكندى ، و«النجوم الزاهرة» لابن تغرى بردى ، ومن أمثلة ذلك :

١ – كتب ابن عبد كان على لسان أحمد بن طولون إلى ابنه العباس :

من أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين إلى الظالم لنفسه ، العاصى لربه ، الملم بذنبه ، المفسد لكسبه ، العادى لطوره ، الجاهل لقدره ، الناكص على عقبه .. سلام على كل منيب مستجيب ، تائب من قريب .. أما بعد فإن مثلك مثل البقرة تثير المدية بقرنيها ، والنحلة يكون حتفها فى جناحيها .

وستعلم – هبلتك الهوابل – أيها الأحمق الجاهل الذى ثنى على الغى عطفه .:. أى مورد هلكة سلكت ...

٢ – من الشعر الذى قيل فى قضية القاضى العمرى :

قال طاهر القيسى :

ولقد قمعت بنى الخبائث عندما راموا العلا وتخوتكوا وتعربوا!
فرددتهم قبطا إلى آبائهـــــم ونسيب أصلهم الذى قد غيبوا!

وقال المعلى الطائى يهجو القاضى العمرى :

كم كم تطول فى قراتـــــك والجور يضحك من صلاتـــك
تقضى نهارك بالهـــــوى وتبيت بين مغنياتـــــك
فاشرب على صرف الزمـــــا ن بما ارتشيت من الحواتك
إن كنت قـــد ألحقتهـــم عربا فزوجهم بناتـــــك

الفصل الثالث

المؤثر الاول: اللغة القبطية

إن حياة أى لغة بمعزل عن التأثيرات الخارجية شيء خيالى ربما لم يتحقق لأى لغة على مدى تاريخها الطويل . ومهما فرض من قيود ووضع من سدود حول اللغة ومتكلميها فإن الاحتكاك بالعالم الخارجى لابد أن يحدث ، والتبادل اللغوى لا مفر من أن يتم .

وحين يحدث — لسبب أو لآخر — أن تلتقى لغتان أو أكثر فى مكان واحد ، لا يمكن أن يتصور وقوف كل منهما بمعزل عن الأخرى تقول لا مساس ، وإنما الذى يحدث أن يبدأ الاحتكاك بينهما ، وأن يتبادلا التأثير والتأثر . وبعد فترة تطول أو تقصر قد تتمكن إحداهما من القضاء على الأخرى والحلول محلها ، وقد لا يحدث هذا وتظل اللغتان جنباً إلى جنب تتعرض كل منهما لسهام الأخرى دون أن تقضى عليها .

ولا يعنى انتصار لغة وانهزام أخرى أن اللغة المنهزمة تموت وتتلاشى من الوجود نهائياً ، فهى ربما تختفى كلغة متكلمة عامة وتظل مستعملة فى مجالات ضيقة ، وبين عدد محدود من الناس لمدة طالت أو قصرت . كما لا يعنى انهزام لغة أنها تموت موتاً كاملا فهى تظل حية حياة جزئية فى شكل بقايا وآثار تختلط باللغة المنتصرة ، وتصبح جزءاً لا يتجزأ منها . وقد حدث هذا — على سبيل المثال — مع اللغة العربية حين رحلت إلى بلاد الفرس وقام الصراع بينها وبين الفارسية ، فقد خرجت العربية منتصرة فى هذا الصراع ، ومع ذلك فقد

أصابها قدر كبير من التغيير الذى يميز عربية ما وراء نهرى دجلة والفرات من سائر العربيات . وحدث هذا أيضاً مع اللغة العربية حين وفدت إلى مصر مع العرب ، واختلطت باللغات المحلية التى كان أهمها القبطية ثم اليونانية . فحين استوت اللغة العربية على سوقها ، وقهرت أولا اللغة الرسمية والثقافية وهى اليونانية . ثم اللغة الوطنية وهى القبطية : تحملت آثاراً من كل منهما ، وظهرت عليها ملامح من كلتا اللغتين . ويبدو أن التأثير اليونانى على عربية مصر كان محدوداً ، إذ لم يتعد إقراضها بعض المفردات ، وبخاصة فى مجال المصطلحات العلمية ولغة الدواوين ، لأنها لم تكن لغة متكلمة بقدر ما كانت لغة مكتوبة ، ولم تشع على ألسنة العامة شيوع اللغة القبطية . ومعظم الصراع اللغوى يتم بين لغتين حيتين متحركتين تريد كل منهما السيطرة على لغة الحياة العامة . واحتكار ميدان الحديث والتخاطب العادى . وفضلا عن ذلك فإنه من المستحيل — بالنسبة لكثير من الكلمات — القطع بأن الاقتراض من اليونانية قد تم فى مصر ولم يتم فى بلد عربى آخر ، وأنه خاصة تميز عربية مصر من سائر العربيات . وصعوبة أخرى تمس التأثير اليونانى فى عربية مصر يتمثل فى صعوبة الفصل بينه وبين التأثير القبطى . وذلك لأن اللغة القبطية حين جاءت إلى معركتها مع العربية كانت قد اقترضت كلمات كثيرة من اليونانية ، وبخاصة فى مجال الطقوس والعبادة وحياة الرهبنة . وحين ترجمت الكتب المقدسة إلى اللغة القبطية رؤى المحافظة على كل الكلمات اليونانية التى لها دخل بالعقيدة أو تعبر عن أفكار مسيحية . ولذلك نجد من يبحثون فى التأثير الأجنبى على عربية مصر يدمجون اللغتين القبطية واليونانية ، ويتحدثون عنهما معاً فى وقت واحد . وخير مثال على هذا ما فعله الدكتور جورجى صبحى فى بحثه المعنون . :

Common Words in the spoken Arabic of Egypt of Greek or Coptic Origin.

فلهذا كله سنركز حديثنا على الأثر القبطى وسنكتفى بالإشارة العابرة إلى التأثير اليونانى حين نملك الدليل عليه .

فإذا أردنا الحديث عن التأثير القبطي وجدنا شقة الخلاف تتسع بين الدارسين حول مداه على عربية مصر إلى حد التطرف فى الاتجاهين المتضادين. ففريق بالغ مبالغة واضحة فى ادعاء الأثر القبطي ، وأخذ يتصيد أى فرصة لإثبات نفوذه ، كما حاول تفسير كثير من الملامح الخاصة بعربية مصر على أنها من آثار اللغة القبطية . وفريق آخر أخذ الطرف المضاد . وبالغ فى التقليل من آثار القبطية على العربية ، وحاول تفسير كل ظاهرة يشتم منها رائحة القبطية تفسيراً يخرجها عن هذا المجال . وهناك فريق ثالث توسط بين الرأيين ، وسلك مسلكاً معتدلا لا تحيز فيه لأحد الجانبين ولا تعصب فيه لإحدى اللغتين ضد الأخرى . ويوجد فريق رابع من الدارسين مس القضية مساً خفيفاً وأشار إشارات عابرة إلى التأثير القبطي وأعطى أحكاماً مبتسرة ليست مبنية على التحليل العلمى للواقع اللغوى . وسنعرض فى إيجاز لهذه الاتجاهات الأربعة ثم نعقب برأينا فى الموضوع .

أما الفريق الأول : فيمثله الدكتور جورجى صبحى الذى اشتهر بأبحاثه الضافية فى هذا الموضوع . ونشره لكثير من الوثائق والبرديات الهامة . ولكنه مال كل الميل فى أحكامه . وحاف حين أراد أن ينسب كل شيء إلى القبطية . ومما قاله فى هذا الموضوع :

١ – بفحص مفردات اللغة العامية العربية فى مصر يفاجأ الشخص بأن نجد عدداً عظيماً من الكلمات التى يمكن ردها بسهولة إلى أصلها المصرى القديم أو أصلها القبطى(١) .

---

(١) انظر جورجى صبحى ص ٢٢ من كتابه :
Common Words in the Spoken Arabic of Egypt of Greek or Coptic Origin.
وص ٧٢ من مقاله :
Studies of Ancient Egyptian in Modern Dialects
المنشور بمجلة : Ancient Egypt عام ١٩٢١ .

٢ — من الممكن أحياناً ترجمة جملة صعيدية إلى القبطية ترجمة حرفية بدون تغيير نحوى ، أو عمل أى تعديل فى نظام الجملة(١) .

٣ — استعمال القبطية بجانب اللغة العربية فى مصر لمدة طويلة من الزمن قد ترك آثاراً قبطية كثيرة فى اللغة العربية الدارجة ككلمات وتعابير وتراكيب أثرت على تعابير وتراكيب اللغة العربية الدارجة فى مصر ، حتّى فى نطق حروف هذه الأخيرة ، وبذا أصبحت لغة مصر الدارجة مختلفة بالمرة عن سائر لهجات اللغة العربية المستعملة فى الأقطار المجاورة لمصر ، ليس فقط فى معجمها ، بل فى نحوها وصرفها(٢) .

٤ — من الغريب أن الاختلاف الحالى بين لهجات اللغة العربية الدارجة (فى مصر) يوافق جغرافياً الاختلاف بين اللهجات القبطية القديمة(٣) .

٥ — كما يتمثل تطرفه فى القوائم الطويلة التى قدمها فى كتاباته المختلفة لكلمات شائعة فى عربية مصر ادعى أن لها أصلا قبطياً(٤) .

ويشاركه فى القوائم الطويلة باحث قبطى آخر هو الأستاذ جرجس فيلوثاؤس عوض(٥) . كما يشاركه فى مبالغاته فى مدى التأثير القبطى على اللغة العربية مستشرقون كثيرون منهم D. Prince الذى يقرر أن هناك أثراً كبيراً للقبطية على العربية المصرية يشمل نظام الجملة والمفردات وطريقة النطق ، ومثل E. Littmann و F. Praetorius الذين صرحوا بوجود نفوذ

---

(١) نفس المرجعين ونفس الصفحتين السابقتين .

(٢) قواعد اللغة المصرية القبطية للدكتور جورج صبحى ص ٣ و ٤

(٣) المرجع السابق ص ٤ و ٨ .

(٤) انظر مثلا ص ٧٤ وما بعدها من : Ancient Egypt 1921 وبحثه ... Common Words ، وبحثه : The Persistence of Ancient Coptic Methods of Medical ...

(٥) انظر المجلة القبطية السنة الأولى ص ١٤٠ وما بعدها ، وص ٣٦٩ وما بعدها ، وص ٤١٢ ومابعدها ، وص ٤٧٠ وما بعدها ، والسنة الثالثة ص ٢٩٧ وما بعدها .

قبطی كبير وبخاصة فی مجال النحو ونظام الجملة ؛ وردوا عدداً من خصائص اللغة العربية المصرية إلى أصول قبطية .

وسوف نناقش هذا وغيره حينما يأتی دور إبداء رأينا فی الموضوع .

وأما الفريق الثانی : فيمثله المستشرق المشهور De Lacy O'Leary (١) الذی ينفی هذا التأثير بشدة . ويخالف Stern, Praetorius , Littmann مفسراً الأمثلة التی ذكروها على أنها ذات أصل قبطی — تفسيراً عربياً صرفاً . ويؤمن أوليری بأن لهجة الصعيد لا تعكس نفوذاً قبطياً — كما يزعم بعضهم — وإنما تعكس نفوذاً بدوياً عربياً . وممن أنكر وجود أی تأثير نحوی للغة القبطية على عربية مصر المستشرق E. Galtier فی بحثه : (٢)
De l'influence du Copte sur l'Arabe d'Egypte

وأما الفريق الثالث : فيمثله الدكتور ولسن بشای الذی درس القضية دراسة موضوعية ونظر إلى جميع أطرافها نظرة علمية صرفة ، وانتهى إلى محدودية التأثير الصوتی للهجة القبطية الصعيدية على اللهجة العربية المصرية المستعملة فی الصعيد ، وانعدام تأثير اللهجة القبطية البحرية على لهجة القاهرة. أما فی مجال النحو فقد أثبت أربعة أمثلة فقط للتأثير القبطی على المصرية الدارجة وعقب ذلك بقوله : « وهذه النتيجة تدل على أن النفوذ القبطی على العامية المصرية من جانب النحو قليل جداً بدرجة تثير الانتباه » . وأما فی مجال المفردات فقد جمع الكاتب أكثر من مائتی كلمة ادعى غيره اقتراضها من اللغة القبطية فوجد من بينها ١٠٩ كلمات فقط وافق على اقتراضها ؛ أما الباقی فمعظمه تمكن من رده إلى أصله العربی ، وبعضه وجده مقترضاً من لغات أخرى غير القبطية . وانتهى بفحصه إلى النتيجة الآتية : « إن معظم الكلمات القبطية المقترضة تتعلق

---

(١) انظر Notes on the Coptic Language

(٢) انظر Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale
الجزء الثانی سنة ١٩٠٢ صفحة ٢١٢ وما بعدها .

بكلمات خاصة بالكنيسة . وكلمات تستعمل فى القرى النائية وغير معروفة لكثير من المصريين . أما الكلمات القبطية المشتركة الموجودة فى المصرية الدارجة فقليلة العدد » (١) .

ونحن وإن كنا نوافق الباحث فى نظريته العامة فإننا نخالفه فى بعض التفصيلات كما سيأتى فى موضعه .

وأما الفريق الرابع : فيمثله يوهان فوك الذى قال فى كتابه « العربية » : « بينما أثرت الفارسية فى عربية العراق تأثيراً بعيد المدى وكثرت فى اللغة العربية الفصحى الألفاظ الفارسية المعربة بصورة ملحوظة ، فإن أثر القبطية فى اللهجة العربية جد ضئيل » ؛ والدكتور عبد الرحمن أيوب الذى قال فى كتابه « التطور اللغوى » : « وإذا كان من الصحيح أننا نتكلم اليوم لهجة عربية فمن الصحيح أيضاً أن كثيراً من الخصائص القبطية قد تسربت إلى هذه اللهجة » . واكتفيا بذلك دون أن يحاولا مناقشة القضية مناقشة علمية . أو يقدما الدليل على ما قالاه .

أما نحن : فنرى أن التأثير القبطى على عربية مصر لا يمكن إنكاره . وأن فترة التأثير القوى كانت فى القرون الثلاثة أو الأربعة الأولى حينما كانت اللغتان حيتين ومتكلمتين . وقبل أن نبدأ دراستنا التفصيلية لهذا الموضوع نحب أن نوضح المبادىء الآتية :

١ — أن بعض التأثيرات القبطية قد غزا العربية الفصحى المشتركة . وذكر فى كتب اللغة الموثوق بها (٢) . وبعضها انتقل إلى عاميات أخرى غير عامية مصر .

(١) انظر : Notes on the Coptic Substratum in Egyptian Arabic
ولنفس المؤلف رسالة نال بها درجة الدكتوراه من جامعة جونز هوبكنز بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٥٩ بعنوان : The Coptic Influence on Egyptian Arabic.
ولكنى لم أتمكن من الحصول عليها .

(٢) سبق التمثيل لذلك بكلمات مثل « قبص » و « صداع » و « مشط » (انظر التمهيد) .

٢ — أن قضية التأثير والتأثر من القضايا الشائكة التي يعسر أو يستحيل في بعض الأحيان القطع فيها برأي . فرب كلمة عربية يظن أصلها القبطي يظهر فيها العكس أو يظهر لها أصل أجنبي آخر تكون اللغتان قد استعارتاها منه سواء عن طريقين منفصلين أو عن طريق إحداهما . وربما يمكنني أن أمثل لذلك بكلمة « سفتجة » بمعنى « إيصال » التي وردت في وثيقة عربية من وثائق البردي المحفوظة بدار الكتب المصرية . والتي يرجع تاريخها إلى عام ٣٤٦ هـ . فواضح أنها كلمة غير عربية . ولكنها في الحقيقة ليست قبطية وإنما فارسية(١). ومن أمثلة ذلك الكلمات اليونانية الأصل الموجودة في كلتا اللغتين القبطية والعربية . إذ لا يمكننا أن نقطع هل كانت قد دخلت العربية عن طريق القبطية أو عن اليونانية مباشرة . كما لا يمكننا أن نقطع ما إذا كانت هذه الكلمات قد دخلت العربية عن طريق مصر أو عن طريق بلد عربي آخر . ورب كلمة نجدها في العربية واليونانية فنظن أن أصلها يوناني وهي في الحقيقة عربية أو سامية . وقد ضرب الأب أنستاس ماري الكرملي أمثلة كثيرة هذا في بحثه المعنون « تناظر العربية واليونانية » الموجود بمجلة مجمع اللغة العربية . الجزء الأول .

٣ — أن اللغة المصرية الحديثة نتاج احتكاك بلغات أجنبية كثيرة مثل اليونانية والتركية والفارسية والفرنسية والإنجليزية والإيطالية ، ولاشك أن كلا من هذه اللغات قد ترك آثاره عليها . ومن أجل هذا فإن الكلمات غير العربية المستعملة في المصرية الحديثة لا يمكن ردها إلى القبطية إلا بعد استبعاد آثار اللغات السابق الإشارة إليها .

٤ — أن كثيراً من الخصائص التي تتميز بها عربية مصر عن سائر العربيات مرده أسباب أخرى غير النفوذ الأجنبي وغير التأثير القبطي مثل

(١) انظر كتاب تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية مع ذكر أصلها بحروفه لطوبيا العنيسي ص ٣٥ .

التطور الطبيعى للغة ونفوذ اللهجات العربية . ومن الثابت تاريخياً أن القبائل العربية التى وفدت إلى مصر كانت كثيرة ومتنوعة وأنها حملت معها سمات لهجاتها وخصائصها. وكثير من هذه السمات والخصائص لم يسجل ولم يدرس ، وبالتالى فمعرفتنا به محدودة أو معدومة . ورب ظاهرة نظن أصلها القبطى يرجع أصلها إلى لهجة عربية ، أو يمكن ردها بعد التدقيق إلى قبيلة عربية معينة ، على نحو ما سنذكر فيما بعد .

٥ — أن درجة تأثير اللغة القبطية على عربية مصر قد تفاوتت من مستوى لغوى إلى مستوى آخر : وربما من كاتب إلى كاتب ومن متحدث إلى متحدث . ولكننا فى دراستنا سنقسم المستويات اللغوية إلى ثلاثة . ونعالج كلا منها على حدة . هذه المستويات هى :

(أ) المستوى الأدبى ، أو اللغة الكتابية للأدباء . وهذا يتمثل فى كتابات كبار الأدباء الذين شغلوا مناصب رؤساء دواوين الإنشاء . والتى كانت تتبع مباشرة الوالى أو الخليفة. كما يتمثل فى كتابات المتخصصين فى اللغة العربية وأشعار الشعراء التقليديين ورجال الأدب بعامة .

(ب) المستوى نصف الأدبى . أو اللغة الكتابية لغير المتخصصين . وهذا المستوى تمثله كتابات صغار الكتاب وموظفى الحكومة فى تسجيلهم للوثائق وكتابتهم للعقود ونحو ذلك . كما تمثله كتابات غير المتخصصين الذين خلفوا كتابات باللغة العربية دون أن يحققوا مستوى رفيعاً فى تعلمهم اللغة العربية . والأمثلة على هذا المستوى قد حفظت لنا فى شكل وثائق من أوراق البردى . كما حفظت فى شكل مؤلفات وصلتنا مما كتبه المؤلفون الأقباط باللغة العربية مثل سويرس بن المقفع وسعيد بن بطريق .

(ج) المستوى العامى ، أو مستوى لغة التخاطب . وبالنظر إلى التأثير القبطى ، فإننا قد اعتبرنا كل الآثار القبطية الموجودة فى لغة الكتابة

لهذه الفترة — اعتبرناها موجودة كذلك فى لغة الحديث . كما اعتبرنا الآثار القبطية الموجودة فى لغة الحديث الآن تمثل الآثار القبطية التى كانت موجودةفى فترة دراستنا ، إذ أننا نفترض أن هذه الآثار إنما ترجع إلى القرون الأولى للهجرة حينما كانت اللغة القبطية لا تزال لغة حية متكلمة ، وحينما كان لها نفوذ على اللغة العربية .

٦ — أننا فى دراستنا للأثر القبطى سنفصل بين ثلاثة أنواع من التأثيرات وسنحاول أن نتتبع كلا منها على حدة . أما هذه الأنواع الثلاثة فهى :

(أ) التأثيرات الصوتية .

(ب) التأثيرات النحوية والصرفية .

(ج) التأثيرات فى مجال المفردات .

وإليكم التفصيل :

(أ) التأثير الصوتى

من الصعب أن نتتبع التأثير القبطى على الأصوات فى لغة الكتابة على لمستويين الأول والثانى ، ولهذا فسنقصر حديثنا على المستوى الثالث ، وهو مستوى لغة الخطاب .

لاشك أنه من أهم الصعوبات التى تصادف المتحدث بلغة أجنبية : نطقه للأصوات غير المألوفة ، أو غير الموجودة فى لغته . ويزداد الأمر صعوبة إذا بدأت المحاولة فى سن متأخرة بعد تعود الجهاز النطقى النطق بطريقة معينة . ولهذا فنحن نتصور أن الوضع فى المرحلة الأولى من الاختلاط كان هكذا : يتحدث العربى بطريقته الخاصة غير المشوبة بعنصر أجنبى ، أما القبطى الذى تعلم اللغة العربيةفكان يتحدث بلهجة مخلوطة بلكنة أجنبية ، أو بعبارة أخرى

كان « يقبط » نطقه العربي . ومع ذلك فنحن نتصور أن نطق القبطى للغة العربية لم يتخذ في يوم ما مقياساً للغة الحديث ، ولم يقبل كنموذج للصواب اللغوى . والسؤال الآن : هل تركت اللغة القبطية أى آثار على الناحية الصوتية للغة الحديث بحيث صارت هذه الآثار حقيقة مسلما بها ، ودخلت لغة الخطاب العامة ، وأصبحت لا تثير انتباه المتكلمين . ولا يشعر بغرابتها أو شذوذها السامعون ؟

يجيب بعضهم عن هذا السؤال بالإيجاب . ويضربون أمثلة على هذا التأثير . ولكن بالفحص الدقيق يتبين خطأ هذا الرأى ، وعدم صحة الأمثلة التى ذكروها . ومما قيل فى هذا الموضوع إن العربية الصعيدية تنطق صوت « الجيم » بقيمته الصوتية القبطية . فهى تنطقه J كما ينطق فى اللغة القبطية وبصورة مختلفة عن نطقه فى كل الأقطار الأخرى المتكلمة باللغة العربية (١) . ولكن الحقيقة أن نطق الجيم الموجود بين عامة الصعيد يعكس – على ما حقق دى لاسى أوليرى – أثراً بدوياً لا أثراً قبطياً. وقيل كذلك إن نطق القاف جيما غير معطشة فى لغة الصعيد حدث بتأثير النطق القبطى للرمز K الذى يمثل القيمة الصوتية للرمز ق . والذى كثيراً ما لفظه الأقباط جيما غير معطشة (٢) . وهذا أيضاً غير صحيح ؛ لأن نطق القاف جيما غير معطشة يقع كذلك – كما أثبت دى لاسى أوليرى – فى حديث البدو السوريين وبدو الجزيرة العربية فى جدة ومكة ونجد .. وأجزاء من فلسطين والعراق .. ولهذا فهو اتجاه بدوى يعطى دليلا على استقرار قبائل بدوية فى مصر العليا فى العصور الوسطى ؛ فهو – مرة أخرى – خاصة بدوية وليس خاصة قبطية .

وقيل إن نظام أصوات العلة الإضافية المستعملة فى عربية مصر اليوم إنما هو نتيجة لنفوذ اللغة القبطية ، فقد حدث نتيجة لغنى التعبيرات القبطية بأصوات

---

(١) صبحى : Common Words ص ٢٢ .

(٢) صبحى : قواعد اللغة المصرية القبطية ص ١٩ .

العلة – ولا سيما الأخيرة – أن أصبح المصريون حين يتكلمون العربية يدخلون فى كلامهم أصوات علة مساعدة أو مختلسة فى حالة اجتماع عدد من حروف السواكن وذلك فى جملة مثل شغل مين دا ؟ التى تنطق Shughl (i) min da؟(١) وفى رأينا أن هذا التفسير لهذه الظاهرة خاطئ فإن ما حدث كان مجرد جلب حركة صغيرة أو نصف حركة للتخلص من التقاء السواكن نتيجة لإلغاء ظاهرة الإعراب فى لغة الحديث . أو بعبارة أخرى للتخلص من وقوع المقطع س ع س س (٢) وسطا حيث إن وقوعه مقيد بكونه المقطع الأخير (٣) . وبذلك تحولت الجملة من س ع س س / س ع ع س / س ع إلى س ع س / س ع / س ع ع س / س ع . وهكذا نرى عدم وجود أى أثر قبطى فى ذلك وإنما هو تغيير لموافقة طبيعة اللغة العربية .

وهناك أمثلة أخرى يحتمل اشتمالها على نماذج للتأثير الصوتى للغة القبطية على عربية مصر قد حددت بعد دراسة مقارنة لأصوات اللغة القبطية والعربية الفصحى والمصرية الدارجة . وقد وجد أن من الخصائص الصوتية التى توجد فى القبطية والمصرية الدارجة دون العربية الفصحى ما يأتى :

(أ) استعمال الفونيم (٤) P = پ .

(ب) تسهيل صوت العين .

(ج) عدم وجود الصوت ث (٥).

---

(١) Prince ص ٢٩٦ .

(٢) س = ساكن Consonant و ع = علة Vowel .

(٣) انظر Mitchell فى : Prominence ص ٣٦١ ، ٣٧٥ ، و د . أيوب فى التطور اللغوى ص ١٩ .

(٤) كلمة فونيم Phoneme مصطلح يراد به الوحدة الصوتية المتفقة التى قد تضم صوتاً واحداً أو عدة أصوات متشابهة يتوقف استعمال كل منها فى الغالب على موقعه فى الكلمة وعلى الأصوات المجاورة له .

(٥) بشاى : Notes وصبحى : قواعد اللغة المصرية ص ١٠ .

ولكن الظاهرة الأولى ليس مردها اللغة القبطية بدليل اختفاء التفريق بين الرمزين ب و ب في القبطية ونطقهما كما تنطق الباء العربية في الهيروغليفية والديموتيقية أى قبل تكوين اللغة القبطية (١) . ولهذا فنحن نرى أنها ظاهرة حديثة النشأة ، ولم تكن موجودة فى الفترة التى ندرسها وأنها دخلت عربية مصر مع النفوذ الأوربي الحديث .

وأما الظاهرة الثانية فنرى أنها — من ناحية — تطور حديث يلى فترة الصراع بين القبطية والعربية ، ومن ناحية أخرى أنها نتيجة التسهيل بإبدال الصوت الساكن الحلقى إلى صوت لين مماثل . أما أنها تطور حديث فلغيابها فى جميع وثائق البردى التى بين أيدينا . وعلى ما حققه البروفسر جروهمان فإن الصيغة العددية التى كانت مستعملة فى الوثائق هى حدعشر وخمستعشر وستعشر (٢) .. وأما أنها نتيجة التسهيل إلى صوت لين مماثل فإن من الثابت صوتياً وجود علاقة بين صوت الحلق والفتحة . وفى ذلك يقول الأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس : « إن أصوات الحلق تناسب فى الغالب وضعاً خاصاً للسان يتفق مع ما نعرفه من وضعه فى الفتحة (٣) » . وما الألف فى حداشر وخمستاشر إلا فتحة طويلة . ويفسر الأستاذ الدكتور عبد الرحمن أيوب هذه الظاهرة قائلا : « أما العين فالظاهر أن المصرية تميل إلى التخفيف من درجة احتكاكها وذلك بجعل فتحة مخرجها فى الحنجرة أكثر رخاوة واتساعاً . وتكاد تكون العين القاهرية تقارب الحركة لهذا السبب (٤) » .

وأما اختفاء الصوت ث من لغة الحديث فواضح — من وثائق البردى — أنه موغل فى القدم ، وأنه تحول تم فى القرون الأولى . ومع ذلك فلم يكن

---

(١) صبحى : قواعد اللغة المصرية ص ١٨ ، و Common Words ص ٢٣ .

(٢) From the World ص ٩٦ .

(٣) من أسرار اللغة ص ٣٣ .

(٤) التطور اللغوى ص ٧١ .

نتيجة تأثير قبطى وإنما نتيجة التخفف من الأصوات العسيرة فى النطق كما حدث بالنسبة للصوت ظ الذى حل محله ض فى مثال « احفض » (وثيقة مؤرخة ١٠١ هـ) و ذ التى صارت د ونحو ذلك ، أو هو لهجة عربية كما سنتحدث فيما بعد .

على أن وجود الصوت ث أو عدم وجوده فى اللغة المصرية القديمة أمر مختلف فيه . فقد أثبته البرفسر Plumley كصوت مستعمل فى اللهجة القبطية الصعيدية حين ذكر أن الرمز ϧ ينطق th فى حين أن الدكتور جورجى صبحى لم يثبته من بين أصوات القبطية حين ذكر أن هذا الرمز ينطق إما تاء أو طاء .

والنتيجة التى ننتهى إليها هى أن تأثير اللغة القبطية على عربية مصر فى مجال الأصوات معدوم تماماً فى لهجة القاهرة ، وإن كنا لا ننكر احتمال وجود بعض التأثيرات فى نطق أبناء الصعيد بخاصة ولكن بدرجة محدودة جداً .

ومن المناسب أن نشير فى ختام هذا الحديث إلى حقيقة هامة تتعلق بالمخطوطة العربية التى كتبت بحروف قبطية . فقد كنا نتوقع أن يظهر فيها تأثير الأبجدية القبطية على الأصوات العربية بأن تختفى الأصوات العربية التى لا يمكن تمثيلها برموز قبطية ، ولكن لم يحدث هذا ؛ إذ رأى الكاتب أن يمثل الصوت العربى برمز قبطى يمثل أقرب الأصوات إليه : ثم يضع الرمز العربى أو جزءاً منه فوق الرمز القبطى . فعل ذلك مع صوت القاف إذ كتبه K ووضع فوقه الرمز ق . وفعل ذلك مع أصوات الحلق الثلاثة الهاء والحاء والعين فكان يمثلها بالرمز القبطى ϩ . ثم للتعبير عن الهاء يدعه كما هو ؛ وللتعبير عن الحاء يضع الرمز ح فوقه وللتعبير عن العين يضع الرمز ء (رأس عين) فوقه ... وهكذا .

(ب) التأثير النحوى والصرفى[1]

لا يوجد نفوذ قبطى على جانبي النحو والصرف فى لغة الكتابة بشقيها ، ونعنى بالنفوذ القبطى انتقال قاعدة نحوية أو نظام صرفى معين إلى لغة الكتابة العربية . وقبول الكتاب لهذا التعبير الجديد واعتباره الأصل والقاعدة . وكل ما نجده - نتيجة لاختلاف نظام الجملة وقواعد النحو بين اللغتين - أخطاء كثيرة فى بعض المخطوطات العربية القبطية يرجع معظمها إلى الترجمة الحرفية من القبطية على أيدى أناس لا يجيدون اللغة العربية . وأبرز خطأ ظهر فى هذه المخطوطات تذكير الكلمات وتأنيثها . فقد عولجت بعض الكلمات المذكرة على أنها مؤنثة إذا حدث أن كانت كذلك فى القبطية . وكذا العكس . ومثال ذلك كلمة الأرض التى هى مؤنثة فى العربية ومذكرة فى القبطية . وقد عوملت معاملة المذكر فى بعض المخطوطات العربية التى كتبها مؤلفون أقباط . ويوجد كذلك كلمتان فى القبطية للتعبير عن « الليلة » واحدة مذكرة والأخرى مؤنثة . ولكننا نجد الكلمة العربية « الليلة » تعامل معاملة المذكر فى بعض المخطوطات القبطية ربما حينما شاع استعمال الكلمة القبطية المذكرة . ومن أبرز الأخطاء كذلك استعمال المفرد بدل الجمع فى تمييز العدد فى نحو تسعة دينار (بدلا من

---

(١) استعارة الظواهر النحوية قضية خلافية بين المحدثين من اللغويين ، فينكر whitency حدوث هذا ، ويقول « لم يتعرض دارسو اللغات قط على تلك اللغة التى تتضمن مزيجا من القواعد النحوية . وتعتبر هذه اللغة بالنسبة لهم مخلوقا عجيبا ، بل هى أحد المستحيلات » . وينادى دى لامى أوليرى بنفس الرأى إذ يقول : « لاتوجد لغة بقواعد نحوية مختلطة » أما يسبرسن فيرى أن فى هذا القول شيئا من المغالاة والإسراف . ويضرب عدة أمثلة على تأثر اللغات بعضها ببعض فى هذه الناحية . ومما يؤيد هذا الرأى ما نعرفه فى الصلة بين العربية والفارسية حين استعارت الفارسية طريقة الجمع العربية وجمعت عليها بعض الكلمات الفارسية . هذا إلى أن نظام الجملة فى العصر الحديث قد تأثر إلى حد ما ببعض الأساليب الأجنبية . ولا سيما فى أسلوب الكتاب المعاصرين الذين تأثروا بالثقافة الأوربية (انظر على وجه الخصوص « من أسرار اللغة » ص ٩٥ وما بعدها) .

دنانير (وأربعة ألف) بدلا من (أربعة آلاف) . (مراد كامل : حضارة مصر ص ٧١) . ولكن مرة أخرى - لا يعد هذا ونحوه نفوذاً قبطياً إذ ظل الناس ينظرون إليه على أنه لحن أو خطأ . ولم يكتب له حظ القبول والشيوع بين عامة الكتاب . نعم هناك أمثلة كثيرة فى لغة الكتابة يتضح فيها أثر الأجنبي فى استعمال اللغة ولكنها كلها يمكن أن ترد إلى عامل الميل الطبيعى إلى التيسير الذى سنتحدث عنه فيما بعد. وليس فيها أى أثر لنفوذ قبطى خاصة.

أما فى لغة الحديث فربما كان الأمر على خلاف ذلك . وهناك - على الأقل - ادعاءات بوجود هذا النفوذ . وسنحاول الآن أن نستعرض الخصائص الغريبة التى تبدو فى عربية مصر لنرى هل تعكس نفوذاً قبطياً أولا :

(أ) استعمال « ما » كسابقة prefix تفيد الأمر مثل : ما تكتب (اكتب).

(ب) استعمال « أ » بالإضافة إلى ضمير الشخص كسابقة مع الفعل الماضى مثل : أهو سمع .

(ج) استعمال اسم الإشارة « دا » فى وظيفة معينة فى الجمل غير الفعلية مثل : دا أنا الملك .

(د) تأخير أداة الاستفهام إذا كانت معمولا مثل : رحت فين ؟

(ه) استعمال الصفة متبوعة بحرف الجر « عن » بدلا من صيغة التفضيل العربية العادية مثل : هو كبير عنى فى مقابل هو أكبر منى .

(و) إلغاء ضمير المثنى واستعمال ضمير الجمع للمثنى والجمع كليهما مثل : الولدين رجعوا .

(ز) حذف حرف العطف فى العدد مثل مية خمسة وعشرين بدلا من مائة وخمسة وعشرون .

(ح) تأخير اسم الإشارة عن المشار إليه مثل : الولد دد فى مقابل : هذا الولد.

أما الظاهرة الأولى فقد ذكرها الدكتور « بشاى » دون أن يقدم لنا الدليل أو ما يشبه الدليل على النفوذ القبطى . ولا يكفى فى نظرنا أن نجد ظاهرة غريبة فى عربية مصر لنسارع فننسبها إلى النفوذ القبطى . وأى قبطية فى « ما » ؟ وأى قبطية فى « تكتب » ؟ أما التركيب نفسه فيبدو أنه هو هو التركيب العربى المكون من «ما » النافية والفعل المضارع . ويكون النفى قد خرج هنا عن معناه الحقيقى إلى معنى آخر هو الاستنكار أو التوبيخ المدلول عليه بالتنغيم المعين للجملة . فكأن الجملة تعنى : لماذا لا تكتب ؟ ومفهوم هذا طلب الكتابة . وهو ما يؤديه التركيب « ما تكتب » . وربما كان أقرب إلى القبول أن نقول إن « ما » أداة استفتاح وهى « أما » . ولكن على عادة السرعة والاختصار فى الكلام قالوا «ما تكتب » وربما زاد الاختصار عن ذلك فقيل « متكتب ». وحتى على فرض جهلنا بأصله العربى فليس معنى ذلك الحكم بقبطيته . وما أكثر ما احتوت اللغة العربية على لهجات قديمة عرفنا أقلها وجهلنا معظمها . وما أكثر ما أغفل القدماء تسجيل اللهجات العربية لسبب أو لآخر . وقد كان كثير من هذه القبائل المتروكة لهجاتها من بين القبائل التى هاجرت إلى مصر واستوطنتها كما سنفصل الحديث فيما بعد .

وأما الظاهرة الثانية فقد ذكرها كذلك الدكتور « بشاى » وهى — فى رأينا — كسابقتها تنطق بعربيتها .

وأما الظاهرة الثالثة فقد ذكرها الدكتور « بشاى » ومن قبله « ليتمان » . والتعبير فى رأينا تبدو فيه الروح العربية الصرفة . إنه يبدو وكأنه صورة أخرى للتعبير « إنه أنا الله » الموجود فى القرآن الكريم . فكأن « دا » هنا حلت محل « إن » و « ضمير الشأن » . وكأن القائل « دا أنا الملك » يعنى ما يعنيه قائل التعبير العربى : « إنه أنا الملك » . ثم لا معنى لقول بشاى إن هذا التعبير يستعمل فى الجمل غير الفعلية . فهو موجود فى الفعلية كذلك . فكلنا نقول :

دا أنا قمت ، دا أنا كتبت .... الخ . وهذا التعبير – بعد هذا – موجود – كما حقق دي لاسي أوليري – في عربية سورية وفي اللغة الملطية وغيرهما .

أما الظاهرة الرابعة فقد كثر القيل والقال فيها واعتبرها الدكتور « بشاي » تغيراً جوهرياً في اللغة المصرية الدارجة نتيجة نفوذ قبطي . وقد سبقه إلى هذا الرأي Stern و Praetorius . وفي رأينا أن الباحثين الثلاثة لم يحالفهم التوفيق وأن القضية كالآتي :

١ – أن هذه الظاهرة موجودة في عربية سورية . فهم يقولون الكتاب منين ؟

٢ – هناك أمثلة وردت لهذا التأخير في العربية الفصحى . وإذا كان النحاة قد أولوها بما سموه بالتعليق وهو إبطال عمل العامل لفظاً لا تقديراً فهذا لا ينفي وجود الاستعمال .

٣ – أن تأخير أداة الاستفهام ليس القاعدة في القبطية . فقد ورد في المقدمة المسماة بالكفاية في نحو اللغة القبطية للشيخ الوجيه القليوبي (وهي من كتب القواعد القبطية المعتمدة ومؤلفها من أوائل من كتبوا في نحو القبطية . وهو من علماء القرن الثالث عشر الميلادي) أن « أين » تقع قبل الكلام وبعده (ص ٣٥) وأن « متى » لا تأتي إلا مع فعل قبلها أو بعدها (ص ٣٦) . كما ذكر أحكام « من » إذا تلتها نكرة أو معرفة (ص ٣٤) وذكر أن « كيف » يحسن أن يقع بعدها فعل (ص ٣٥) . وذكر الدكتور عبدالمحسن بكير في كتابه « قواعد اللغة المصرية في عصرها الذهبي » أن « من » و « ما » لهما الصدارة (ص ٣٧ و ٣٨) .

٤ – أن القاعدة في العامية المصرية ليست تأخير أداة الاستفهام ، فنحن نقول : فين أخوك ؟ وأخوك فين ؟ كما نقول : منين جيت ؟ وجيت منين ؟ .

٥ – أن بعض الأمثلة التي تؤخر فيها الأداة مرجعه إعادة تنظيم الجملة وتغيير هندستها نتيجة للتخلص من الإعراب . وأضرب لذلك المثال الآتي :

لنأخذ الجملة الفصحى : قابل محمد علياً . يمكننا أن نسأل عن المفعول فنقول : من قابل محمد ؟ وعن الفاعل فنقول من قابل علياً ؟ والفرق واضح بين الجملتين نظراً لوجود الإعراب . فإذا حولنا هاتين الجملتين إلى العامية المصرية فقلنا : مين قابل محمد ومين قابل على لم يكن هناك دليل على وظيفة كل كلمة فى الجملة . ولهذا استعاضت العامية عن الإعراب بالموقعية فخصت مين قابل على ؟ حين تكون « مين » فى موقع الفاعل ومحمد قابل مين حين تكون « مين » فى موقع المفعول . وهكذا يتضح غياب النفوذ القبطى فى هذه الظاهرة .

أما الظاهرة الخامسة فقد أشار إليها « ليتمان » . واعتبرها نتيجة نفوذ قبطى . وأشار إليها « بشاى » ولكنه تشكك فى كونها نتيجة نفوذ قبطى . ومن المعروف أن اللغة المصرية القديمة ليس فيها صيغة خاصة بالتفضيل النسبى أوالتفضيل المطلق . ويعبر عن التفضيل النسبى بحرف الجر الذى يسبق الاسم المفضل عليه (١) .

ولكن مرة أخرى ليس هناك أى دليل قد يشتم منه إرجاع هذه الظاهرة فى العامية المصرية إلى أصل قبطى . والأمر فى رأينا يحتاج إلى التفصيل الآتى :

١ — تعبر العامية المصرية عن التفضيل بوسيلتين ، هما : أفعل + من ، أو الصفة + عن . ويبدو أن الاتجاه أول الأمر كان نحو إيثار الصيغة الأولى ، كما يبدو من مخطوطات القرن الرابع عشر المكتوبة بحروف قبطية حيث جاء فيها « صار أردا من الكل » ثم تحول الاتجاه رويداً رويداً إلى الصيغة الثانية . ولا يمكننا أن نقطع برأى حول أيهما أكثر شيوعاً فى الاستعمال الحديث . فإنه يفهم من كلام دى لاسى أوليرى أن الصيغة الثانية أكثر شيوعاً ، ويفهم من كلام Galtier أن الصيغة الأولى أكثر شيوعاً .

(١) دكتور بكير : قواعد اللغة المصرية ص ٤٠ و ٤١ .

٢ — استعمال الصيغة + عن له نظير فى اللغة العبرية . تلك اللغة التى تكشف أحياناً عن خصائص تتفق مع اللغة العربية المصرية الدارجة . ومن أجل هذا افترض دى لاسى أوليرى أن صيغة « أفعل من » قد تكون أحدث فى الاستعمال من الصيغة + عن . ومعنى هذا أن التعبير الثانى كان مستعملا فى القديم . وظل محتفظاً به فى العبرية . كما احتفظت به بعض اللهجات العربية . واستمر فى شكل بقايا فى اللهجات العربية الحديثة .

٣ — ذكر الدكتور عبد المحسن بكير أن هذا الاستعمال مطرد كذلك فى السريانية والأكادية وكلاهما سامى .

٤ — ذكر دى لاسى أوليرى أن استعمالا مماثلا موجود فى لهجات أخرى حيث لا يوجد نفوذ قبطى ففى مراكش يستعملون الصيغة + على . وفى عمان يستعملون أفعل + عن .

وأما الظاهرة السادسة فلم يشر إليها أحد . ولكنها قد ترد على البال نتيجة لما نعرفه عن اللغة القبطية من استعمالها ضميراً واحداً للمثنى والجمع (١) . ولكن هذه الظاهرة هى الأخرى عربية أصيلة . واستخدام ضمير الجمع للمثنى معروف عند العرب قديماً . وورد فى القرآن الكريم مثل قوله تعالى : هذان خصمان اختصموا .

وأما الظاهرة السابعة فقد لفت نظرى إليها ما وجدته فى أوراق البردى من حذف واو العطف فى جملة نحو « مئة ستة وأربعين درهم » مع ما ذكره الدكتور عبد المحسن بكير من أنه لا توجد أداة عطف فى اللغة المصرية القديمة . بل تأتى الكلمات المعطوفة بعضها يتلو البعض الآخر (ص ١٧) . ولكن يغلب على الظن أن هذا الحذف كان بقصد التخفف من تكرار الواوات وأن هدفه هو التيسير وتوفير الجهد .

---

(١) المقدمة لقلادة ص ٢٥ و ٢٦ ، ومقدمة ابن الدهيرى ص ٤٣ .

وأما الظاهرة الثامنة ، فقد لفت النظر إليها أنها خاصة من خصائص المصرية العربية من بين سائر اللهجات كما صرح دى لاسى أوليرى . ولا يمكن أخذ أى نتيجة من الصيغة « دا » لأنها موجودة فى « عمان » وشمالى إفريقية (ما عدا تونس) وغيرها . وقد صرح سيبويه نفسه بأن الهاء ليست جزءاً من اسم الإشارة وأنها حرف تنبيه . ولكن موقع اسم الإشارة هو المهم فى هذا المقام . فمن المعروف أن المصرية القديمة تضع اسم الإشارة بعد الاسم (١) (أما فى القبطية فاسم الإشارة يسبق الاسم) ، فهل أثر هذا على وضعه فى عامية مصر ؟ مع وجود هذا الاحتمال فإننا نرى أن هذا تطور داخلى بحت لا أثر فيه للعامل الخارجى أو الأجنبى . وقد ذكر الدكتور عبد المجيد عابدين أن اسم الإشارة يأتى للتبعية الوصفية بعد المشار إليه فى لهجة السودان كذلك . فيقال : الراجل دا . وقد يتقدم على المشار إليه . ومن الأمثلة التى احتفظت فيها عامية مصر بموضع اسم الإشارة قبل المشار إليه قولهم : « دلوقت » التى تتركب من اسم الإشارة + كلمة الوقت . وفى رأيى أن وضع اسم الإشارة بعد المشار إليه قصد به التيسير وتجنب التشعيبات الموجودة فى اللغة الفصحى . انظر مثلا الجملة : أخوك هذا ... فى الفصحى حيث لا يصح أن يتقدم اسم الإشارة فيها فيقال هذا أخوك ... ، والجملة هذا الأخ ... حيث يتقدم اسم الإشارة . أما فى العامية فيقال فيهما كليهما : أخوك ده ... والأخ ده ... بتوحيد مكان اسم الإشارة بدون نظر إلى نوع المشار إليه .

ونخلص من كل هذا إلى أنه ليس هناك دليل أو شبه دليل على وجود أثر قبطى فى مسائل النحو والصرف . وكل ما هنالك قد يكون مجرد شبهات أو احتمالات ليس جانب الإيجاب فيها أقوى من جانب السلب .

---

(١) دى لاسى Notes ص ٢٥٣ .

(ج) التأثير فى مجال المفردات

لا يستطيع أحد أن ينكر أثر القبطية على عربية مصر فى مجال المفردات . ولكن شقة الخلاف واسعة بين الدارسين حول تقدير مداه . وفى رأينا أنه ينبغى أن يفحص على حدة كل مستوى من مستويات اللغة الثلاثة التى سبق أن أشرنا إليها . لأن آثار هذا العامل تختلف من مستوى إلى مستوى .

فإذا نظرنا إلى المستوى الأول - وهو المستوى الأدبى وجدنا أثر هذا العامل ضعيفاً جداً لا يتجاوز بضع كلمات دخلت لغة الكتابة . وأصبحت تتردد فى أساليب المثقفين والمتخصصين . وقد حالف الحظ بعض هذه الكلمات فاقتحمت اللغة الفصحى المشتركة ولم تعد ينظر إليها على أنها خاصة مصرية أو لفظة محلية . ومن أمثلة ذلك :

١ - كلمة « تليس » التى تعنى زكيبة أو كيساً كبيراً . وقد وردت فى كتاب « المكافأة » لابن الداية . ويبدو أن هذه الكلمة قد أصابها التعريب فاعتبرت عربية . بدليل أننا لا نجد إشارة إلى أصلها القبطى فى كتب اللغة . وقد فسرها ابن منظور تفسيراً مختلفاً إذ قال فى لسان العرب : « التليسة وعاء يسوى من الخوص شبه قفعة وهى شبه العيبة التى تكون عند العصارين » . وقد أشار إلى الأصل القبطى لهذه الكلمة العلامة القبطى أقلوديوس لبيب فى كتابه « مجموعة الألفاظ القبطية المتداولة باللهجة العربية العامية » . والبحاثة القبطى جرجس فيلوثاوس عوض وشرحها بأنها الزكيبة التى توضع فيها الحبوب وتحتوى على اثنى عشرة كيلة وصارت الآن اسماً عاماً للزكيبة . كما ذكرها الدكتور صبحى فى كتابه .

Common Words in the spoken Arabic of Egypt of Greek or Coptic Origin.

٢ - كلمة « طوبة » التى استعملها عمر بن الخطاب فى قوله « ولا تدخلن القبر خشبة ولا طوبة » . واضطربت المعاجم العربية فى بيان أصلها الأجنبى . فقيل هى شامية وقيل رومية وقيل إنها جاءت بلغة أهل مصر . وقد ذكر

ابن منظور كذلك أن الشافعي قد استعملها . وكلنا نعرف أن الشافعي أمضى فترة طويلة من عمره في مصر وألف بها بعض كتبه . أو أعاد كتابتها . وقد ذكر أصلها القبطي الدكتور جورجي صبحي .

٣ - هذا بالإضافة إلى أسماء الأعلام على اختلاف أنواعها .

أما المستوى الثاني وهو مستوى الكتابة لغير المتخصصين أو المستوى نصف الأدبي فتتردد فيه بكثرة نسبية الألفاظ الأجنبية ذات الأصل القبطي . وأحياناً اليوناني أو اللاتيني . وسبب ذلك واضح . وهو أن معظم صغار الموظفين في تلك الفترة - وبخاصة في جزئها المبكر - كانوا يحملون أسماء قبطية مثل مينا بن شنودة وسويرس بن زكريا . مما يعني أنهم لم يكونوا مسلمين . وأنهم من تلك الفئة التي تعلمت اللغة العربية لتحتفظ بمناصبها أو لتنفتح أمامها أبواب الرزق . ومعنى هذا أن لغتهم العربية ليست خالصة . وأن معجمهم اللغوي ولا شك متأثر بلغتهم الأصلية . '

وإن نفوذ اللغة القبطية في هذا المستوى قد بدا في شكل الاحتفاظ بأسماء الشهور القبطية حتى ولو كان العام مكتوباً بالتاريخ الهجري مثل « هاتور من عدد القبط سنة ٢٧٣ هجرية » . و « توت من سنة ٢٣٣ هجرية » . ومن الطريف أننا نجد بعض الناس - في ذلك الوقت - يحملون اسمين أحدهما عربي والآخر قبطي مثل « أنها اعتقت صفراه بالعربية . واسمها بالقبطية دجاشة ابنة أرينة » . ومن الكلمات القبطية التي وردت في وثائق البردى :

١ - كلمة « بقط » بمعنى عقد إيجار .

٢ - وكلمة « حالوم » نوع معين من الجبن .

٣ - هذا إلى جانب أسماء الأعلام بمختلف أنواعها .

أما المستوى الثالث وهو مستوى الخطاب أو لغة الحديث العادى . فعلى الرغم مما يتوقع من قوة النفوذ القبطى عليه فإن النتائج النهائية تقضى بغير ذلك . نعم إن نفوذ القبطية فى هذا المستوى أكثر منه بكثير فى المستويين السابقين . ولكنه – مع ذلك – محدود . وكثير من آثاره محصور فى مناطق ضيقة أو أماكن نائية، وبخاصة فى الصعيد . ولذا فهى غير معروفة لكثير من المصريين . وإذا نحن قمنا بتصنيف هذه الكلمات الأجنبية التى يرجع كثير منها إلى أصل قبطى وجدنا معظمها يندرج تحت الرءوس الآتية :

١ – كلمات خاصة بالكنيسة وبالطقوس الدينية وحياة الرهبنة مثل أنبا وأسقف وبطريق وبطريرك وأبرشية (ولاية الأسقف ورعيته) . ولكن معظم كلمات هذا النوع مقترض من اليونانية. ولا يمكننا أن نقطع أكان انتقال هذه الكلمات إلى اللغة العربية تم فى مصر أم فى سورية .

٢ – كلمات تدل على أنواع من الطعام غير معروفة عند العرب مثل « بصارة » . للدلالة على الطبق الشعبي المعروف . وهى فى القبطية مركبة من كلمتين . ومعناها الفول المصرى المطبوخ . وفول « مدمس » إذا نحن قبلنا أن أصلها قبطى . وعيش « بتاو » ؛ وجبنة « حالوم »...

٣ – أسماء لأنواع من السمك أو الحيوانات المصرية مثل « ملوحة » . و « بورى » ؛ و « شلبة » . و « أنومة » . و « تمساح » . و « بس » المستعملة لزجر القطة ومعناها فى المصرية القديمة القط .

٤ – أسماء نباتات أو آنية أو مكاييل معينة كانت مستعملة فى مصر مثل « برسيم » ؛ و « سريس » ؛ و « شكوريا » ، و « سنط » ؛ و « بلح أمهات » ؛ و « بلاص » ؛ و « ماجور » ؛ و « إردب » ، و « ويبة » .

و « مترد » للوعاء الذى يوضع فيه اللبن وقت حلبيه . ومعناه بالقبطية محل اللبن (١) .

٥ — أسماء أمراض أو وصفات بلدية مثل كلمة « شوطة » (٢) التى تستعمل للدلالة على الوباء . و « سنطة » التى تستعمل للدلالة على الورم الصغير الذى إذا قطع أدمى ثم نما ثانية . وكلمة « واوا » التى تستعمل مع الأطفال للدلالة على ألم أو جرح أو حرق .

٦ — أسماء الأعلام مثل الشهور القبطية الشائع استعمالها حتى الآن فى القرى المصرية . وأسماء البلاد مثل صهرجت . وسنهور . وسنجرج ، وصفط . وأرمنت ، وسمنود ... الخ .

وأسماء الأعلام كثيرة جداً ، وإن كان من الصعب أن نعدها من الكلمات المقترضة أو ننسبها إلى لهجة عربية معينة . نعم هناك أسماء عامة مدرجة ضمن بعض أسماء المكان . وما زالت مستعملة فى عربية مصر مثل كلمة « باب » التى تعنى مقبرة (ولا علاقة لها بالكلمة العربية باب) . ولا زال المصريون يطلقون اسم « باب الملوك » على إحدى مقابر الملوك عند « طيبة » . ولكن حتى هذه من الصعب عدها كلمة مقترضة لأنها لم تعمم فى الاستعمال ، ولم تصبح فى عرف الناس مرادفة لكلمة « مقبرة » . ولا شك أن جمهور المتكلمين لا يفطنون إلى معناها القديم فى القبطية .

وهناك عدد آخر من الكلمات الشائعة فى عامية مصر ولها أصل قبطى مثل « سيجه » للعبة الشعبية المعروفة . و « باباى » التى يستعملها الأطفال بخاصة

---

(١) لايمكننا أن نجزم بالأصل القبطى لهذه الكلمة ، إذ هناك احتمال كبير أن تكون الكلمة عربية على ماسنفسره فيما بعد .

(٢) قد يقال بعربية هذه الكلمة وأنها من « الإشاطة » بمعنى الإهلاك والاحتراق . وأن أصلها « شيطة » ثم حرفت إلى « شوطة » .

حينما يرون ما يفزعهم ، ومعناها الحرفى فى القبطية « بومة » أو « غراب الليل » ، و « لبشة (١) » قصب ، و « بخ » حينما يريدون تخويف شخص ومعناها فى القبطية « الشيطان » ، و « تف » بمعنى بصق (٢) . وفجل « وروز » ، وطلع « بوش » ، (٣) و « بح » (٤) بمعنى انتهى . و « ممة (٥) » و « امبو » فى لغة الأطفال . و « جاى » فى الاستغاثة أو الشكوى .

وموضوع تبادل المفردات بين اللغات أكثر مستويات اللغة شيوعاً . لأنه يتصل بتيار الثقافة والعادات أكثر من اتصاله بأصل اللغة وجوهرها . وكم من لغة عاشت وتعيش بمفردات أجنبية ومع ذلك تظل محتفظة بجنسها المميز ، مثل « الأردية » التى اشتقت مفردات كثيرة من العربية والفارسية ، ولكنها قطعاً لهجة من اللغة الهندية . ومثل اللغة المالطية التى تعرضت لتأثير إيطالى قوى فى مفرداتها . ولكنها ما تزال ينظر إليها على أنها لهجة عربية .

ونحب قبل أن نختم هذا الفصل ، أن نتعرض بشىء من التفصيل للدعوى العريضة التى يكثر الدارسون الأقباط من ترديدها ، وهى إقراض القبطية عربية مصر بأمداد ضخمة من المفردات . ونقتبس أولا ما قاله الدكتور

(١) من المستبعد أن تكون الكلمة عربية وأن تكون كما يرى بعضهم مأخوذة من مادة « لبك » من قولهم رأيت لباكة من الناس أو لبيكة ، بمعنى جماعة ثم أبدلت الكاف شينا للخفة .

(٢) ربما كان الأقرب إلى الصواب القول بأن الكلمة ترجع إلى أصل فارسى أو تركى . لأن « تف » و « تفو » كلمة تركية وفارسية بمعنى لعاب أو ريق . وربما كان أصلها سريانيا.

(٣) توجد فى الفارسية كلمة « بوج » ومعناها فارغ أو خال أو أجوف . ولعل الكلمة العربية مأخوذة من هذا الأصل الفارسى .

(٤) فى السريانية توجد كلمة « بح » بمعنى نخر أو جف أو ذبل فمن المحتمل أن تكون « بح » العربية لها أصل سريانى . وهناك احتمال آخر أن تكون الكلمة عربية كما سنفصل فيما بعد .

(٥) هناك احتمال قوى أن أصل هذه الكلمة تركى . ففى التركية يقال للأطفال « ممة » ومعناها الثدى . وربما كانت الكلمة حكاية صوت حركة الفم عند الأكل .

جورجى صبحى فى هذا الخصوص من مثل : « بفحص المفردات المستعملة فى عامية مصر يذهل الشخص لاكتشافه عدداً كبيراً من الكلمات التى يمكن بسهولة أن ترد إلى أصل مصرى قديم أو قبطى » . وبعد أن ذكر قائمة طويلة من هذه الكلمات عقب بقوله « وهناك مئات أخرى من الكلمات الشائعة فى لهجة مصر التى لا تفهم فى سائر البلاد العربية ولم ترد فى المعاجم الكلاسيكية » . فهل هذا صحيح حقاً ؟ وهل عامية مصر متأثرة بالمفردات القبطية إلى هذا الحد الكبير ؟ وهل الدكتور صبحى – وغيره – على حق فى القوائم الطويلة التى ذكروها بهذا الخصوص ؟ دعنا أولا نلقى نظرة فاحصة عليها . ونبين رأينا فى بعض مفرداتها لفظاً لفظاً قبل أن نصدر حكمنا العام فى الموضوع . تتضمن قوائم الكلمات :

١ – لبؤة : والكلمة ومادتها موجودتان فى المعاجم العربية : وليس فيها إشارة إلى أصلها الأجنبى .

٢ – مصطبة : والكلمة عربية صرف . قال الأزهرى : سمعت أعرابياً من بنى فزارة يقول لخادم له : ألا وارفع لى عن صعيد الأرض مصطبة أبيت عليها بالليل . فرفع له من سهلة شبه دكان مربع : قدر ذراع من الأرض ، يتقى بها من الهوام بالليل . قال وسمعت آخر من بنى حنظلة سماها المصطفّة بالفاء .

٣ – عزْبة : والكلمة كذلك عربية لحماً ودما . وهى وإن لم ترد بنصها فى كتب اللغة فقد وردت مادتها وهى تدور حول الزرع والكلأ والرعى . ومما جاء فى لسان العرب : أرض عزوبة بعيدة المرعى – العازب من الكلأ البعيد المطلب – المُعزِب طالب الكلأ – كلأ عازب لم يُرع قط . أعزب القوم إذا أصابوا كلأ عازباً – أعزب إبله وعزّب إبله بيتها فى المرعى .

وهكذا تبدو من الاستعمالات المختلفة لهذه المادة عربية الكلمة « عزبة » . وحتى استعمالها فى معنى قريب جداً مما ورد فى المعاجم .

٤ ــ فتفت : وفى اللسان : فت الشىء دقه وقيل كسره بأصابعه . والفت أن تأخذ الشيء بإصبعك فتصيره فتاتا أى دقاقا . وكل ما فى الأمر استعمال صيغة مضعف الرباعى بدلا من مضعف الثلاثى . وتلك ظاهرة شائعة فى عامية مصر للدلالة على المبالغة واستعمال الحيلة كقولهم دقدق ، وبصبص ، وشمشم ... الخ .

٥ ــ صيت : والكلمة عربية وردت فى شعر لبيد (١) وفى الحديث النبوى الشريف (٢) .

٦ ــ مدّة : وفى اللسان : أمد الجرح صارت فيه مدّة . والمدّة ما يجتمع فى الجرح من القيح .

٧ ــ (رجل) مهلوس : والكلمة تحريف للفظ العربى مَهْلُوس من قولهم رجل مهلوس العقل أى مسلوبه .

٨ ــ هوّش : وفى اللسان : الهَوْشة الفتنة والهَيْج والاضطراب والهرج والاختلاط وكل شيء خلطته فقد هوشته .

٩ ــ شوط : الكلمة محرفة عن النطق العربى شَوْط . وقد رواه الأصمعى وورد فى الحديث النبوى وفى حديث الطواف : رمل ثلاثة أشواط .

١٠ ــ رفّ (الحاجب) : وفى اللسان رفّ النبات اهتز . ورفّت عينه ترفّ اختلجت ، وكذلك سائر الأعضاء .

١١ ــ خمخم (فى وصف الشخص المزكوم) : وفى اللسان : الخمخمة ضرب من الأكل قبيح ، والخمخمة مثل الخنخنة . ثم ذكر فى مادة خنن : الخنين صوت يخرج من الأنف ، وقال الجوهرى هو كالبكاء فى الأنف

---

(١) وهو قوله : وكم مشتر من ماله حسن صيته لآبائه فى كل مبدى ومحضر

(٢) وهو قوله صلى الله عليه وسلم : ما من عبد إلا له صيت فى السماء .

أو الضحك فى الأنف . وقال الفصيح من أعراب بنى كلاب : الخنين سُدد فى الخياشيم . والعلاقة واضحة بين المعنيين مما يجعلنا نقطع بعربية اللفظ .

١٢ — عيِّل : وفى اللسان : عيال الرجل وعيِّله الذين يتكفل بهم ، وقد يكون العيِّل واحداً عن كراع . ويبدو أن التطور الذى لحق هذه الكلمة على يد المصريين كان هو نقلها من صيغة الجمع إلى صيغة المفرد بدليل أن صاحب اللسان نقل هذا الاستعمال عن كراع وحده . وكراع من علماء اللغة المصريين كما سبق أن أشرنا .

١٣ — مسخّم : وفى كتب اللغة : السخمة : السواد ، والأسخم الأسود ، والسخام : سواد القدر ، والسخام : الفحم ، والسخام : السواد . ومنه قيل سخّم الله وجهه أى سوّده . وروى عن عمر فى شاهد الزور : يسخّم وجهه أى يسود .

١٤ — « أوأ » و « أم أوىء » : وهما — فى الحقيقة — تحريف للكلمتين العربيتين أوق وأم أويق . يقال : آق فلان علينا إذا أتانا بالأَوْق وهو الشؤم . وسميت البومة « أم أويق » لتشاؤمهم منها .

١٥ — برّا (كقولهم اخرج برا) : والكلمة عربية صحيحة . فالبر نقيض الكنّ ، والعرب تستعمله فى النكرة تقول : جلست برا ، أو خرجت برا : إذا خرج إلى البر والصحراء . ولا يطعن فى عربية الكلمة ما يقوله بعض اللغويين من أنها — فى ذلك التعبير الخاص من كلام المولدين ، ولم تسمع من فصحاء العرب بالبادية .

١٦ — نف ونفافة : وهى عربية مأخوذة من مادة « النغف » مع إبدال الغين فاء . والنغف ما يخرجه الإنسان من مخاط من أنفه .

ولا نريد أن نحبر صفحات أكثر من هذا لإثبات عربية عشرات أخرى من الكلمات التى ادعى أصلها القبطى ، ولذا سنكتفى بالإشارة إلى عدد آخر منها وهو :

تبّوت – معدية – هرّ من خوفه – يا معطرة رُخى – دبش – مهياص – مكلكم – صُباع – عَفَّ (الذباب) – كوع – سيف – قطف – كَرْم (عنب) – أربكة – تلْ – مَرهندل – عَنتيل – قُلة (ماء) – بأمنا – فول مدشوش – فاس – جحش – كوب ... الخ .

وهكذا يتضح أن كثيراً من الكلمات التي ذكروها عربي صرف . وبعضه معرب عن لغات أخرى . وتم تعريبه بعيداً عن مصر .

والخلاصة أن مخلفات اللغة القبطية من المفردات في عامية مصر محدودة جداً بعكس ماقد يظن . وقد عبر عن هذه الفكرة الدكتور بشاى حين قال : « وهذا ينتهى بنا إلى القول بأن الكلمات القبطية المشتركة الموجودة في المصرية الدارجة لا تزال قليلة العدد » . فليس هناك مئات ومئات من الكلمات . وليس هناك دهول من كثرة عددها . وإنما هي عشرات من الكلمات لا تتجاوز بحال من الأحوال المائة .

والنتيجة النهائية التي نستخلصها من كل هذا أن التأثير القبطي على عربية مصر تأثير محدود جداً لا يكاد يتجاوز مجال المفردات . وحتى في هذا المجال فالآثار ضئيلة جداً على عكس ما يردده البعض . وليست هذه النتيجة بالأمر الشاذ أو المستغرب لدى دارسي اللغات ومراحل صراعها . وإنما هو شيء متوقع يمكن التكهن به مسبقاً . وفي ذلك يقول بلومفيلد عالم اللغة الأمريكي المشهور : حين تنتصر لغة الغزاة وتندثر اللغة المغزوة لا نكاد نلحظ آثاراً في اللغة الغازية نتيجة لذلك الصراع إلا بعض الكلمات الخاصة بالبيئة الجديدة من أعلام أو أسماء الأمكنة . ومن ألفاظ تعبر عن أشياء تتميز بها هذه البيئة .. وهذا ما حدث للغة الرومانية حين قضت على معظم لغات أوربا في عصر الامبرطورية الرومانية (١) .

---

(١) انظر الدكتور إبراهيم أنيس : من أسرار اللغة ص ٤٩ (ط ثانية) و Bloomfield في كتابه Language ص ٤٦٤ .

الفصل الرابع

المؤثر الثانى : اللهجات العربية

جاء العرب إلى مصر فاتحين ثم مهاجرين . وكانوا مزيجا من عناصر شتى . وقبائل متعددة . وحملت كل قبيلة معها لهجتها الخاصة التى تختلف قليلا عن أختها . واختلط كثير من هذه اللهجات . وانعزل بعضها مكونا جزراً لغوية . وبخاصة فى الأماكن النائية من الصحراء أو الصعيد الأعلى . ونتج عن هذا - إلى جانب عوامل أخرى كثيرة - وجود اختلافات بين لهجات الأقاليم . واختصاص كل محافظة . وربما كل قرية بسمات معينة . وبخاصة فى لغة الحديث .

وإنه لمن المؤسف حقاً أن نقول إن اللهجات العربية القديمة لم يسجل كثير من سماتها وخصائصها . بل سجل القليل . وهو ما دخل فى نطاق اللغة الفصحى . وترك الكثير وهو ما خرج عنها . وقد قسم علماء اللغة والرواة القبائل العربية إلى قسمين اهتموا بأحدهما وأهملوا الآخر . وبنوا فكرتهم على أساس البداوة والحضارة . فكلما كانت القبيلة بدوية أو أقرب لحياة البدو كانت لغتها أفصح . والثقة فيها أكثر . وكلما كانت متحضرة أو أقرب إلى حياة الحضارة كانت لغتها محل شك ومثار شبهة . وكلما كانت القبيلة منعزلة عما حولها . ومنقطعة الصلة بالعالم الخارجى كانت لغتها أفصح وأنقى ، وكلما كانت وثيقة الصلة بالأمم المجاورة ولها علاقات من أى نوع كان مع الدول الأجنبية كانت لغتها محل طعن وموضع ريب . وفكرتهم فى هذا

أن الانعزال فى كبد الصحراء وعدم الاتصال بالأجناس الأجنبية يحفظ للغة نقاوتها، ويصونها من أى مؤثر خارجى. وأن الاختلاط يفسد اللغة وينحرف بالألسنة. وأول من روى لنا قائمة محددة بالقبائل التى يستشهد بها والتى لا يستشهد بها الفارابى اللغوى فى كتابه «الألفاظ والحروف». وتعد هذه القائمة وثيقة تاريخية هامة. وعنه أخذها أبو حيان فى «شرح التسهيل» والسيوطى فى كتابيه «المزهر» و «الاقتراح». وإليكم نص هذه الوثيقة: «قال أبو نصر الفارابى فى أول كتابه المسمى بالألفاظ والحروف: كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعاً وأبينها إبانة عما فى النفس. والذين نقلت عنهم اللغة العربية. وبهم اقتدى. وعنهم أخذ اللسان العربى من بين قبائل العرب هم: قيس وتميم وأسد. فإن هؤلاء هم الذين عنهم أخذ أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم اتكل فى الغريب وفى الإعراب وفى التصريف. ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم. وبالجملة فلم يؤخذ عن حضرى قط. ولا عن سكان البرارى ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم، فإنه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط. ولا من قضاعة وغسان وإياد لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرءون العبرانية. ولا من تغلب والنمر فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان. ولا من بكر لمجاورتهم للنبط والفرس. ولا من عبد القيس وأزد عمان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس. ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة. ولا من بنى حنيفة وسكان اليمامة. ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدءوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم ... ».

فإذا استعرضنا على ضوء هذه الوثيقة أسماء القبائل التى اشتركت فى جيش

الفتح أو استوطنت فى مصر نجد أن كثيراً منها كان من بين القبائل غير الموثقة التى لم تسجل لغتها .

١ ـ فمن المعروف أن أغلب المهاجرين العرب طوال القرن الأول كانوا من قبائل يمنية الأصل . وتطالعنا الوثيقة بعدّها أهل اليمن من بين غير الموثوق فيهم الذين لم تسجل لهجاتهم .

٢ ـ أشهر من سكن مصر من « قضاعة » : « جهينة » و « بلى » و « قضاعة » مطعونة فى فصاحتها .

٣ ـ من بطون كهلان التى سكنت مصر « لخم » و « جذام » و « غسان » والثلاثة مطعون فى فصاحتها .

٤ ـ نزلت طائفة من قريش فسطاط مصر فى أوائل الفتح . وسكن لفيف من الأنصار فى صعيد مصر . وقد تجنب علماء اللغة حواضر الحجاز .

٥ ـ هاجرت قبيلة « الكنز » إلى مصر فى القرن الثالث الهجرى ونزلت فى بلبيس بالشرقية . وفى أعالى الصعيد . وبنو الكنز ينتسبون إلى ربيعة بن نزار ويرتفع نسبهم إلى بنى حنيفة المقيمين فى منطقة اليمامة . وتطالعنا الوثيقة السابقة بالتشكيك فى بنى حنيفة وسكان اليمامة .

٦ ـ نجد قبائل من طيء تصل مصر وتقيم بها فى القرنين الأولين بعد الفتح . وقد هاجر بطن من بطونها اسمه سنبس فى سنة ٢٤٢ هـ = ١٠٥٠ م من فلسطين إلى مصر حيث نزل مديرية البحيرة . وتطالعنا الوثيقة بأن بعضاً من طيء لا يوثق بلغتهم .

وهذا يعنى أن لهجات هذه القبائل التى استبعدت من مجال التسجيل ، وحكم عليها بالفساد والخروج عن نطاق اللغة الفصحى ، والتى كانت فى الواقع مصدراً من مصادر اللهجات العربية التى تكونت فى مصر بعد الفتح لا نعرف عنها إلا القليل، أو لا نعرف عنها شيئا ألبتة . وهذا يلقى ظلالا كثيفة من

الصعوبة على هذا الفصل حيث نفتقد الشواهد التى تعيننا على رد الظواهر اللهجية إلى مصادرها الأولى . ورب ظاهرة نحكم عليها بالخطأ وهى ترجع إلى لهجة من تلك اللهجات الوافدة . ورب تعبير أو لفظ نظن أجنبيته وهو يمت بعرق ونسب إلى أصل عربى . ورب ظاهرة صوتية نتوهم رجوعها إلى اللسان القبطى وهى ترجع فى الواقع إلى لهجة عربية أو خاصة بدوية .

وعلى أى حال فقد وضعنا أيدينا على بعض الخصائص اللهجية التى تركت آثارها فى لغة مصر فى هذه الفترة ، وسنحاول أن نعرضها الآن . معترفين بأنها لا تمثل إلا القليل أو الجانب الصغير ، وأنه ما زال بيننا وبين التقصى شوط كبير .

— ١ —

أما آثار اللهجات العربية فى المستوى الأدنى للغة . وقد استخرجناها كلها من أرقى المستويات الكتابية فى تلك الفترة فمن أمثلتها :

أولا : فى مجال النحو والصرف :

١ — إلزام جمع المذكر السالم الياء فى جميع حالاته الإعرابية . وقد لوحظت هذه الظاهرة حتى فى الوثائق المبكرة المنسوبة إلى قرة بن شريك . وهى لهجة عربية أشارت إليها كتب النحو .

٢ — حذف نون المثنى بدون إضافة نحو « مائتى » بدلا من مائتين و « بيتى » بدلا من بيتين ، وقد لوحظ هذا فى وثائق البردى . وهذه أيضاً لهجة معروفة فى كتب النحو وعليها المثل المشهور : يبضك ثنتا ويبغى مائتا أى يبضك ثنتان ويبغى مائتان . وجاء عليه قول الشاعر العربى :

هما خطتا إما إسارٌ ومنــة   وإما دم والقتل بالحر أجدر

وابن جنى يرى رفع « إسار » ويستجوده .

٣ – حذف أن المصدرية قبل المضارع . ومن ذلك قول الشافعي : عليه يتعلم الصلاة – قبل تُكمل الصلاة – قبل يَحلّ عليك (١) . وقول ابن زولاق : لاشتهيت تصفع نفسك (٢) . وحذف « أن » لهجة عربية ، وبعضهم يبقى عملها بعد الحذف وبعضهم يبطله . (٣)

٤ – حذف النون في الأفعال الخمسة بدون ناصب ولا جازم . وقد تردد هذا في كلام الإمام الشافعي كقوله : فلا يُحلوا المطلقة حتى تغتسل ويتفرقوا في بعض ما أخذوا به منهم (٤) . كما ورد في كلام ابن زولاق مثل (٥) : وجاءت سنانير يصيحوا . ومن كلام ابن الداية : تغيظيني بقولك أقرضيني . وهذه أيضاً لهجة عربية صحيحة وجاء عليها الحديث النبوي الشريف : كما تكونوا يولى عليكم .

٥ – نصب معمولي « إنّ » كقول الشافعي : من أن ذلك موجوداً على كلهم (٦) . وشاهده من الشعر القديم ... إن حراسنا أسداً .

٦ – إثبات الياء في المنقوص النكرة كقول الشافعي : عن مصلي – على نواحي – وكذلك كل والي – ثلاثة معاني كلكم مؤدي ما عليه – من وجه ثاني (٧) .

---

(١) الرسالة (تحقيق أحمد شاكر) ص ٩٤ و ٣٦٥ و ٤٨٢ .

(٢) أخبار سيبويه المصري ص ٣٩ .

(٣) في القرآن الكريم : ومن آياته يريكم البرق . وفي المثل : خذ اللص قبل يأخذك – بنصب ... ويرفعه ... بالوجهين قول الشاعر :

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلد

(٤) الرسالة ص ٥٦٢ و ٥٩٧ .

(٥) أخبار سيبويه المصري ص ٢٨ .

(٦) الرسالة ص ٤٥٨ .

(٧) الرسالة ص ٢٩٤ و ٤١٥ و ٤١٧ و ٤٣٢ و ٤٨٣ و ٥٢٠ .

٧ – إنابة الجار والمجرور مناب الفاعل مع ذكر المفعول به منصوباً كقول الشافعي : أن يُظن به ظناً مخالفاً – يشترى بالدنانير والدراهم نقداً عـلا وسمنا (١) .

٨ – إلحاق علامة التثنية أو الجمع بالفعل إذا أسند إليه مثنى أو جمع كقول ابن الداية : اشتهوا عليّ صبياني حلوى فى العيد . وتلك لهجة مشهورة معروفة فى كتب النحو ولها شواهد كثيرة .

٩ – إشباع تاء الخطاب فى مخاطبة المؤنثة كقول ابن الداية : جزاء ماقدمتيه . قال الخفاجي هي لغة ربيعة . وقد وردت فى الحديث النبوى فيما رواه البخارى كذلك . (٢)

١٠ – إدخال « ال » فى العدد المضاف كقول أبي جعفر النحاس : الثلاثة الأصناف – الثلاثة الأحرف ، بدلا من ثلاثة الأصناف وثلاثة الأحرف ، وقول ابن ولاد : والثلاثة الأنجم .

ثانياً : فى مجال المفردات :

نجد مفردات كثيرة تتردد فى أشعار المصريين وكتاباتهم ليس لها وجود فى المعاجم التى بين أيدينا . وهذه – فى رأينا – لابد أن تمثل استعمالات خاصة لبعض القبائل التى أهمل تسجيل لغتها ، أو تمثل مادة لغوية ندت عن حصر اللغويين . ومن أمثلة ذلك :

١ – استعمال « ست » مكان « سيدة » وقد وردت فى « المكافأة » لابن الداية . وهى استعمال قديم أشار إليه أبو العلاء المعرى فى رسالة الغفران وذكر له البيت :

(١) الرسالة ص ٥١٤ و ٥٢٥ .

(٢) شفاء الغليل على تصحيح بعض ما استعمله العامة من المعرب والدخيل والمولد والأغلاط (ط المنار) ص ٤٤ .

ست إن أعياك أمــــرى فاحمليني زقفونـــــــة

وقال الفيروزا بادى : ستى أى ياست جهاتى . وقال الزبيدى معقباً على هذا : كأنه كناية عن تملكها له . وقال بعضهم إن أصلها سيدتى فحذف بعض حروف الكلمة تخفيفاً . وللبهاء زهير أبيات استعمل فيها هذه الكلمة أكثر من مرة متحدياً اللغويين التقليديين وهى :

بروحى من أسميها بستى فينظرنى النحاة بعين مقت
يرون بأننى قد قلت لحنــا وكيف وإننى لزهير وقتى
ولكن غادة ملكت جهاتى فلا لحن إذا ما قلت ستى

٢ – استعمال كلمة « عيالات » جمعاً لعيال . وقد وردت فى « فتوح مصر » لابن عبد الحكم . وهى ليست فى معاجم اللغة التى رجعت إليها .

٣ – جمعهم « جيل » على جيل كقول المعلى الطائى :

كيف ياقبط تكونوا عربــا ومريس أصلكم شر الجيل

ولا يوجد هذا الجمع فى « لسان العرب » ولا القاموس المحيط .

٤ – استعمل سعيد بن عفير « تفكل » بمعنى أخذته الرعدة فى قوله :

فما زاده الإبعاد إلا توقــرا وصبرا ولم يخضع ولم يتفكل

والذى فى اللسان : الأفكل الرعدة ولا يبنى منه فعل . وهناك افتكل بمعنى احتفل ، أما تفكل فلا توجد .

٥ – استخدام كلمة « التقليد » بمعنى المحاكاة ، كما فى قول النحاس : وهذا زجر عن التقليد . وهذا المعنى لا وجود له فى أى من المعاجم القديمة.

٦ – استعمال كلمة « الخلاع » بمعنى الخارجين على السلطان . فقد قال أبو عثمان السكرى فى مدح يحيى بن معاذ الذى تولى مصر عام ١٩٢ ﻫ :

وأباد الخلاع من كل أرض بعد ما حاد عنهم كل فارس

ولم أجد هذا الاشتقاق فيما تحت يدى من معاجم .

وأما آثار اللهجات العربية فى المستوى نصف الأدبى أو اللغة الكتابية لغير المتخصصين فأكثر وأغزر . ونضيف إلى الأمثلة السابقة التى لابد أن تكون قد شاعت فى هذا المستوى كذلك – ما يأتى :

أولا : فى مجال الأصوات (١) :

١ – حلول التاء محل الثاء مثل تلات بدلا من ثلاث واتنعشر بدلا من اثنا عشر وتعلب بدلا من ثعلب .ويروى أن عرب خيبر كانوا ينطقون التاء عوضاً عن الثاء (٢) .

٢ – كتابة القاف كافاً ونطقها قريباً من صوت الكاف . ومن المعروف أن القاف القريبة من الكاف قد انتقلت مع الهلالية وأحلافهم من القيسيين منذ القرن الرابع الهجرى إلى أقطار شتى فى إفريقية والأندلس . وقد عرف بها عربان أهل البادية فى مصر أيام المماليك : حتى كان هؤلاء يطار دون العربان فى المعارك ويميزونهم بهذه الكاف . فكان إذا ادعى أحد منهم أنه حضرى قيل له قل « دقيق » فإن قالها بالكاف قتل ، وإن قالها بالقاف أطلق . وقد تحدث ابن خلدون عن هذه القاف وسماها القاف المعقودة (٣) وعدها من

---

(١) لم نتمكن فى المستوى السابق من أن نضع أيدينا على أى آثار صوتية . لأن اللغة المكتوبة لاتكشف عن كيفية النطق لعدم تمثيلها أصوات العلة من ناحية ، ولمحافظتها على الهجاء التقليدى من ناحية أخرى حتى لو كانت الكلمة تنطق بصورة أخرى. أما فى هذا المستوى فقد أمكننا أن نضع أيدينا على كثير من الخصائص الصوتية وذلك بمساعدة وثائق البردى العربية المنشورة . ثم كان للنص العربى المكتوب بحروف قبطية والذى نشره الدكتور صبحى أهمية خاصة فى هذا المقام نظرا لتمثيل نرسم القبطى للكلمات المنطوقة بما فى ذلك حروف العلة فيها .
واعتمدنا كذلك فى كتابة هذا الجزء على مؤلفات الأقباط باللغة العربية وهى كثيرة ومتعددة

(٢) انظر عبد المجيد عابدين : «من أصول اللهجات العربية فى السودان» (ط أولى سنة ١٩٦٦) ص ٤٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٥ و ٤٦ .

خصائص البدو فى الأقطار العربية (١) .

٣ – كتابة الذال دالا ونطقها كذلك . ومما ورد منه : « فإدا » بدلا من فإذا . و « أخد » بدلا من أخذ . و « أحدق » بدلا من أحذق . ومن المعروف أن اللغة الآرامية التى كانت ذات تأثير بالغ فى كثير من لهجات العرب قبل الإسلام وبعده كانت تبدل الذال دالا بصفة مطردة . ومن المعروف كذلك أن بنى ربيعة كانوا يبدلون الذال دالا فى بعض الألفاظ (٢) .

٤ – التبادل بين الصاد والسين مثل فلصطين وفلسطين . والصلطان والسلطان . وسوف وصوف ، ومسبوغة ومصبوغة . وهذا التبادل مشهور فى اللهجات العربية القديمة . ومن أمثلته : سفح وصفح . وسقر وصقر . وسراط وصراط . ولسق . ولصق . . وبساق وبصاق . وسفق وصفق .

٥ – إهمال الهمزة بالكلية مثل « جانى » بدلا من جاءنى ، و « شى » بدلا من شىء و « اردا » بدلا من أردأ و « جاهم » بدلا من جاءهم . وقضية تسهيل الهمزة – فى القديم – بالحذف أو التخفيف أشهر من أن نشير إليها .

٦ – إعمال قانون المماثلة بين الأصوات إلى أبعد حد . وأمثلة ذلك من مخطوطات دير القديس مكاريوس كثيرة منها :

(أ) عنده التى كتبت عّنده . وقد سبق أن شرحنا المماثلة بين حروف الحلق والنتحة . وقد جاءت هذه الصيغة وفقاً لإحدى اللغات فى نطق « عند » .

---

(١) من الأهمية بمكان أن نشير هنا إلى أن مخطوطات دير القديس مكاريوس التى تمثل الكلمات العربية برموز قبطية تكشف عن أن صوت القاف حتى ذلك الوقت لم يكن قد كتب أو نطق فى شكل همزة بين المثقفين وأنصافهم ولم يرد فيها مثل واحد لهذه الظاهرة .

(٢) عبد المجيد عابدين : من أصول اللهجات العربية فى السودان ص ٤٩ .

(ب) وَسِخ التى كتبت وِسخ . والمماثلة بين الحركات ظاهرة شائعة فى اللهجات العربية ؛ مثل عليهم ِ الجلاء . فلإمه الثلث فى بعض القراءات .

ثانياً : فى مجال النحو والصرف :

١ - أهم ظاهرة تلفت نظر الباحث هى إهمال الإعراب أو التخلص منه بالكلية . وأحياناً نجد بعضهم يحاول المحافظة عليه فيقع فى أخطاء فاحشة . ومن أمثلة إهمال الإعراب نقتبس ما يأتى : فدفعت لهم فاس وتليس خبز وملح - اجنوا لكم قصب - قلى لى كلام . وهذه النماذج الثلاثة مأخوذة من مخطوطات دير القديس مكاريوس . وقد ندت هذه الأمثلة من الكاتب لأنه كان حريصاً على التزام الإعراب . وكان يكتب التنوين بحروف تمثل الحركة والنون مثل كلمة مسكنة التى كتبها كما لو كانت مسكنتن .
ومن الأمثلة التى وردت فى البرديات ومؤلفات الأقباط : حرف بحرف (بدلا من حرفاً بحرف) - الذى كان رئيس على دير - فلم يلبث قليل حتى وقع الطاعون - أقاموا ستة أشهر إلا يوم - مما يسوى درهم - كتبت إلياك كتاب - عشرين رطل .

ولا شك أن إهمال الإعراب جاء نتيجة تأثير بعض اللهجات العربية الوافدة . فعلى الرغم مما هو معروف بين علماء اللغات من أن الإعراب كان من أهم الظواهر العربية الشديدة الالصوق باللغة ، فإن كثيراً من الأمثلة اللهجية التى وردت إلينا تكشف عن اتجاه خطير نحو التخلص منه . كما أنه من غير الممكن الزعم بأن الإعراب كان ملتزماً بين كل القبائل وعلى كل المستويات . وفى هذا يقول الأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس : «إن ظاهرة الإعراب لم تكن ظاهرة سليقة فى متناول العرب جميعاً ، بل كانت صفة من صفات اللغة النموذجية الأدبية ولم تكن من معالم الكلام العربى فى أحاديث الناس ولهجات

خطابهم ». ويستدل الدكتور عبد الحليم النجار (١) على شيوع ظاهرة إهمال الإعراب بأمثلة الإدغام التي وردت بكثرة في القرآن الكريم من مثل: الكتاب بالحق - النكاح حتى - الناس سكارى - يشفع عنده - يبتغ غير الإسلام - اختلف فيه - البينات ثم - الصالحات جنات - السيئات ذلك - الجنة زمرا - وورث سليمان - حيث شئتما ...

وقد أدى ذلك إلى محاولة إلزام الكلمات المعربة بالحروف وجهاً واحداً. ومن أمثلة ذلك: في ذو الحجة - أبو قبر (بدلا من أبا قبر) - ذا النون (بدلا من ذي النون) - أبا أيوب (بدلا من أبي أيوب) - (بيداه بدلا من بيديه) - إن هاتان الخصلتان (بدلا من هاتين الخصلتين) ... الخ.

٢ - معاملة الفعل المعتل الآخر معاملة الصحيح في الإعراب. ومن أمثلة ذلك: لم تدري (بدلا من لم تدر) - رضيوا (بدلا من رضوا) - سمّيوا (بدلا من سموا) ... وثابت لغوياً وتاريخياً أن هذه هي القاعدة في بعض اللهجات العربية (٢). وجاء عليها قول الشاعر:

ألم يأتيك والأنباء تنمي ... بما لاقت لبون بني زياد

وقول الآخر:

هجوت زبان ثم جئت معتذرا ... من هجو زبان لم تهجو ولم تدع

ومنه أيضاً قول الشاعر:

تراه وقد فات الرماة كأنه ... أمام الكلاب مصغيُ الخد أصلم

ولهذه الظاهرة آثار باقية في لغات سامية أخرى كاللغة الحبشية التي تقول

---

(١) « في اللهجات العربية وأصول اختلافها » مقال بمجلة كلية الآداب (جامعة القاهرة مجلد ١٥ جزء ١ مايو سنة ١٩٥٣) ص ٥٤ و ٥٥.

(٢) انظر د. بشر: نظرات في الصرف العربي ص ٢٢ و ٢٤.

صَحَو بدلا من صحا . ورَمَىّ بدلا من رمى . وتلو بدلا من تلا وغير ذلك (٢) .

٣ ـ معاملة المؤنث المجازى معاملة المذكر فى كل شىء . بإعادة الضمير عليه مذكراً . ووصفه بمذكر . والإشارة إليه باسم الإشارة المذكر مثل : هذا الدار عينه الأمن .. وقد كانت هذه عادة بعض العرب . وكان المبرد من أوائل من تبنوها ونادوا بها إذ قال فيما نقله عنه أبو جعفر النحاس فى « إعراب القرآن » : « مالم يكن فيه علامة التأنيث . وكان غير حقيقى التأنيث فلك تذكيره نحو : هذا نار » . وقد وردت شواهد عربية قديمة مصادقة لرأى المبرد مثل قوله تعالى : السماء منفطر به . وقول الشاعر :

والعين بالإثمد الحارى مكحول

وقول الآخر :

فلا مزنة ودقت ودقهـــا ولا أرض أبقل إبقالهــا

٤ ـ الوقوف على الضمير بنقل حركة آخره إلى الحرف الذى قبله مثل قولهم : ينفع نفسُه ـ فقال لُه عنُده . وقد بدا ذلك واضحاً فى مخطوطات دير القديس مكاريوس .

٥ ـ إسقاط الفاء من جواب « أما » مثل : أما بيوتكم قد سقطوا .. وقد ورد ذلك فى الشعر على قلة كقوله :

فأما القتال لا قتال لديكـــم ولكنّ سيرا فى عراض المواكب

كما ورد فى الحديث النبوى الشريف .

٦ ـ صرف الممنوع من الصرف مثل : ذبحوا ذبائحاً . والخلاف بين

---

(١) المرجع السابق ص ٢٥ .

النحاة فى جواز صرف الممنوع من الصرف بدون علة تناولته كتب النحو بالتفصيل . وفى القرآن الكريم « سلاسلا وأغلالا » : وفيه « اهبطوا مصرا ».

ثالثاً : فى مجال المفردات والتعبيرات :

فى هذا المستوى اللغوى شاعت عبارات وألفاظ كثيرة لها أصول عربية واضحة ، ولكن ربما تحرج المتحفظون من استعمالها ، أو ربما لم يكتب لها الشيوع فى البلاد العربية فظلت لها صفة المحلية أو الإقليمية ، مما شجع بعض اللغويين أن يحكموا عليها من أجل ذلك بالابتذال أو غير الفصاحة . ومن أمثلة ذلك :

١ – استعمالهم لفظتى « قبلى » و « بحرى » فى مقابل جنوبى وشمالى . وقد تردد ذلك كثيراً فى وثائق البردى وبخاصة فى وثائق البيع ووصف حدود الأراضى أو المنازل . وقد تنبه المقريزى إلى هذه الخاصة المصرية فقال فى خططه : إلا أن أهل مصر يستعملون فى تحديدهم بدلا من الجهة الجنوبية لفظة القبلية . ويقولون الحد القبلى ولا يقولون الجنوبى . وكذلك يقولون الحد البحرى ويريدون الشمالى .

٢ – استعمال كلمة « المزين » بمعناها الحديث الذى نستعمله فيها الآن وهو الحلاق .

٣ – استعمال كلمة « أبهات » جمعاً لأب : وقد وردت فى مخطوطات دير القديس مكاريوس . ولم أعثر عليها فى معاجمنا اللغوية . ولعل منشأها القياس الخاطئ لهذه الكلمة على « أمهات » . ومن الجموع الغريبة كذلك جمع « سوط » على « أسياط » و « نجيب » على « نجبان » ، و « جنة » على « أجنة » .

٤ – استعمال كلمة « بيت الراحة » بمعنى مكان قضاء الحاجة ، كما وردت فى المخطوطات الموجودة بمكتبة دير القديس مكاريوس .

٥ — استعمال كلمة « ثقيل » بمعنى جندى مدجج بالسلاح . وقد ورد ذلك فى وثائق البردى .

٦ — استعمالهم كلمة « أسباطة » (تحرفت الآن إلى سباطة) بمعنى العذق أو القنو . وعلى الرغم مما قيل عن أصلها اليونانى فإن صلتها الظاهرة بمادة « سبط » العربية تجعلنا نقول بعربيتها . ومن معانى هذه المادة : السَّبَط : الشجرة لها أغصان كثيرة وأصلها واحد . والسِّبْط ولد الولد والقبيلة .

٧ — وهناك بعض تعبيرات مصرية وردت إشارات خاطفة إليها فى مؤلفات كراع النمل اللغوى المصرى الذى مات فى القرن الرابع الهجرى ومنها : رف الحاجب : اختلج — فش القفل : فتحه بغير مفتاح — فحم الصبى : بكى حتى ينقطع صوته (١) .

— ٣ —

وأما آثار اللهجات العربية فى مستوى الخطاب العادى أو اللغة الدارجة فأكثر من أن تحصى ، وتعتبر اللهجات العربية — بلا شك — المصدر الرئيسى لها . وإنه لمن السهل جداً رد كثير من خصائصها إلى أصول عربية ، سواء احتفظ بهذه الأصول كما هى ، أو لحقها تعديل وتغيير . ومن أهم تلك الآثار :

أولا : فى مجال الأصوات :

نضيف إلى الأمثلة السابقة فيما مضى ما يأتى :

١ — كسر حرف المضارعة — ماعدا همزة المتكلم لخوف اختلاط صيغة المضارع بصيغة الأمر — مثل يِكتب — تِكتب — نِكتب . وظاهرة الكسر هذه معروفة فى تاريخ اللهجات العربية ، واطردت فى بعض اللهجات القديمة .

(١) انظر المنجد فى اللغة ص ١٣٠ و ١٣٧ و ١٨٦ مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ٥٠ لغة .

٢ – إبدال القاف همزة فى القاهرة وبعض حواضر الوجه البحرى . ولذلك أصول قديمة على ما قرره أنوليمان فى بحثه « بقايا اللهجات العربية فى الأدب العربى » . وهو موجود فى أسماء الأعلام الفينيقية . وقد نقل السيوطى تعصوأ بمعنى تصوق (أى توسخ) وذكر الأب أنستاس : أفز بمعنى قفز واستنشأ بمعنى استنشق .. إلخ . وعلى الرغم من أن مخطوطات دير القديس مكاريوس لا تعبر عن صوت القاف برمز الهمزة فليس فى ذلك دليل على عدم حدوث هذا التطور فى العصور السحيقة . فإن لغة هذه المخطوطات – برغم ما فيها من مسحة عامية – خليط من العامية والفصحى . وقد التزم كاتبها – فى كثير من الأحوال – الاتجاه الفصيح مفضلا إياه على الجانب العامى.

٣ – حذف نون « من » و « عن » إذا وليهما ساكن مثل مالبيت عالبيت . وتلك خاصة من خواص خثعم وزبيد من قبائل كهلان اليمنية .

٤ – النطق الصعيدى لصوتى القاف والجيم يعكس اتجاهاً بدوياً كما سبق أن ذكرنا .

٥ – النطق القاهرى لصوت الجيم له أصل عربى فى اللهجات العربية القديمة . وقد أثبت أنوليمان أن نطق الجيم الأصلى كان كما هو عليه الآن فى القاهرة . وقدم أدلة على ذلك من الكتب والنقوش اليونانية التى ذكرت فيها أسماء عربية . ومن نقش وجد فى « أم الجمال » ، ببادية الشام مكتوب بحروف نبطية . ومن المقارنات السامية المتعددة . أما نطقها مع التعطيش فكان نطق القرشيين فى زمان النبى (١) . وصار نطق القرآن الكريم .

ثانياً : فى مجال النحو والصرف :

١ – إلغاء الإعراب كما سبق أن فصلنا .

(١) بقايا اللهجات العربية . بحث بمجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول مايو سنة ١٩٤٨ (ص ١ و ٢) .

٢ — قرن الباء بحرف المضارعة كقولهم باكتب وبيكتب.. واستخدام هذه الباء مع المضارع قديم جداً فى اللغات السامية . فقد وردت فى نقوش كنعانية من شمالى سورية ترجع إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد .

٣ — لصق نون وقاية باسم الفاعل المضاف إلى ياء المتكلم مثل ضاربنى وفاهمنى . وقد ورد هذا فى الشعر القديم . ومنه قول الشاعر :

هم القائلون الخير والآمرونــه   إذا ماخشوا من مُحدث الأمر مُعظَما

٤ - الاستغناء عن صيغة س ع / س ع / س ع فى الماضى المعتل الآخر بالياء مثل بقى . والاستعاضة عنها بصيغة س ع / س ع ع مثل بقَنا . وقد تردد ذلك كثيراً فى أوراق البردى العربية وله أصل فى اللغة .

ثالثاً : فى مجال المفردات :

الأمثلة كثيرة للكلمات المحرفة عن أصل عربى أو التى ترجع إلى لهجة عربية معينة . ومن ذلك :

١ — كلمة « جلبية » المحرفة عن جلباب .

٢ — « مترد » التى يكثر استعمالها فى الريف . وهى تحريف لكلمة « مثرد » اسم المكان من الفعل ثرد . يقال : ثردت الخبز ثرداً كسرته فهو ثريد ومثرود .

٣ — « نبوت » التى تعنى الفرع النابت من الشجر . وتطلق — كما نص صاحب التاج — على العصا المستوية فى لغة المصريين .

٤ — « إيش » التى ترددت كثيراً فى الوثائق البردية ومخطوطات الأقباط بمعنى أى شىء . وهو مخفف منها كما نص عليه ابن السيد فى « شرح أدب الكاتب » ، وصرحوا بأنه سمع عن العرب .

٥ — كلمة « ست » التى سبق الحديث عنها .

٦ - قول « مدشوش » : فقد حكى ثعلب فى المجالس جششت الحنطة ودششتها . وعلى هذا فقول العامة مدشوش ودشيش له أصل عربى بخلاف من زعم أنه معرب عن القبطية .

٧ - استعمال لفظ « امبارح » الذى يبدو أنه النطق الحميرى للفظ « البارحة » بإبدال اللام ميماً . وعليه جاء الحديث النبوى : ليس من امبر امصيام فى امسفر (ليس من البر الصيام فى السفر) . ويرى أنوليتمان أن هذا ليس إبدالا وأن « أم » أداة تعريف مستقلة .

٨ - استعمال كلمة « بح » للأطفال خاصة بمعنى انتهى أو لم يبق . وأصله بحباح . فى لسان العرب : قال اللحيانى : زعم الكسائى أنه سمع رجلا من بنى عامر يقول : إذا قيل لنا أبقى عندكم شىء ؟ قلنا : بحباح . أى : لم يبق .

٩ - استعمال كلمة « ربت » بدلا من ليت . والتبادل بين الراء واللام مشهور فى كتب اللغة . وروى أن بنى قيس كانوا يقولون رَعلّ فى لعل .

الفصل الخامس

مؤثرات أخرى

إلى جانب العاملين السابقين وجدت عوامل أخرى كان لها تأثير ثانوى على عربية مصر ، وتتمثل فى :

١ — عامل النزوع نحو السهولة وتوفير الجهد (١) .

٢ — عامل اللامبالاة .

٣ — عامل الاقتراض من لغات أخرى غير القبطية واليونانية ،مثل اللاتينية والفارسية والتركية .

أما فى المستوى الأول فلا تظهر بوضوح آثار هذه العوامل . كما لم تتضح آثار العاملين الأولين . ولا يوجد اختلاف جوهرى بين كتابات هذا المستوى فى مصر ومقابله فى البلاد العربية الأخرى . والسبب يتمثل فى الحقيقة التى كان مسلماً بها فى تلك الفترة وهى أن اللغة العربية النموذجية تتمثل فى القرآن والأحاديث النبوية ، وفى الشعر والنثر التقليديين . وقد أدى هذا بالكتاب والشعراء والأدباء إلى أن يحاولوا محاكاة هذه النماذج الأدبية . وأن يكون غاية مايرجوه

(١) منذ عصر مبكر اختلف المفكرون هل كانت اللغات تجنح إلى السهولة أم إلى التعقيد . وعلى رأس الفريق الأول اللغوى الأمريكى Whiteney الذى يقرر أن كل ما نكتشفه من تطور فى اللغة ليس إلا أمثلة لنزعة اللغات إلى توفير المجهود الذى يبذل فى النطق . (انظر الدكتور أيوب : التطور اللغوى ص ٣٩ و ٤٠) .

الواحد منهم أن يتبع تقاليدها حرفياً . وعلى الرغم من هذه الحقيقة ، ومن المحاولات الصادقة للأدباء ألا يحيدوا عن الأسلوب الراقى والمستوى الأدبى النموذجى ، فإن الفحص الدقيق لتلك الأساليب يكشف عن أخطاء ومخالفات للتقاليد الكتابية ، ولكنها – والحق يقال – تبدو ضيئلة جداً . ومن ذلك قول ابن الداية : لم يبق لى إلا جارية" .. ومنزلا ، والصواب «ومنزل» . ومن طريف ما يروى فى ذلك أن الفضل بن عباس دخل على كافور الإخشيدى وعنده أبو إسحاق النجيرمى فقال له : أدام الله أيام سيدنا الأستاذ . بجر الأيام ، فابتسم كافور إلى أبى إسحاق النجيرمى فقال أبو إسحاق على الفور :

لا غرو أنْ لحن الداعى لسيدنا   وغص من هيبة بالريق والبهر
فإن يكن خفض الأيام عن دهش   من شدة الخوف لا من قلة البصر
فقد تفاءلت فى هذا لسيدنـــا   والفأل نأثره عن سيد البشر
بأن أيامه خفض بلا نصـــب   وأن دولته صفو بلا كــدر

فأمر له كافور بثلثمائة دينار ولابن عباس بمثلها .

ومن الكلمات المقترضة :

١ – كلمة جسطال أو قسطال التى تعنى حاكم مصر . ثم استعملت فى معنى حاكم مقاطعة أو مديرية . وقد ترددت كثيراً فى وثائق البردى بما فيها رسائل قرة بن شريك المبكرة . وقد ذكر جروهمان أنها مقترضة من أصل يونانى أو لاتينى .

٢ و ٣ – كلمة مازوت وجمعها موازيت التى وردت فى المؤلفات العربية واستعملها المقريزى فى الخطط إذ قال : « نُزعت موازيت القبط عن الكور واستعمل المسلمون عليها » . ومعناها بالتعبير الحديث عمدة القرية أو حاكم المدينة . وقد ذكر جروهمان أن أصلها يونانى أو لاتينى .

أما « الكورة » فتعنى القرية أو المحلة أو المدينة . وهى كلمة مقترضة كذلك وترددت فى رسائل قرة بن شريك .

ويبدو أن هذه الألفاظ – وربما غيرها – كانت خاصة بالرسائل الرسمية أو بلغة الإدارة .

وأما المستويان الثانى والثالث – وسندمجهما فى هذا الفصل – فيظهر فيهما بوضوح آثار هذه العوامل سواء فى مجال الأصوات أو النحو والصرف أو المفردات .

أولا : فى مجال الأصوات :

من أمثلة ذلك :

١ – إبدال الذال زايا الذى يبدو أنه لا يمثل عنصراً لهجياً أصيلا . وإنما هو استخفاف فى كيفية النطق وبذل جهد أقل .

٢ – إبدال الظاء ضادا مثل « احفض » بدلا من احفظ التى وردت فى وثائق البردى .

٣ – وقد ورد فى بعض وثائق البردى إبدال الضاد طاء مثل « محطره » بدلا من محضره و « فطله » بدلا من فضله .

٤ – قلب الزاى دالا كما فى كلمة جزاء التى كتبت فى الوثائق البردية « جدى » .

٥ – التخلص من حرف العلة المزدوج عن طريق قلبه إلى حرف علة طويل . ومن أمثلة ذلك « بَيْت » التى تحولت إلى « بِيت » :

٦ – الإدغام بعد قلب أحد الصوتين المتقاربين إلى صوت مماثل مثل « بعت » فى مكان بعثت التى وردت فى وثيقة بردية كتبت فى سنة ٢٧٨ هـ :

٧ - فك ياء النسب المشددة والاستعاضة عنها بياء مد مثل « الشرقى » بدلا من الشرقىّ ، وقد كتبت الكلمة فى مخطوطات دير القديس مكاريوس هكذا .

ثانياً : فى مجال النحو والصرف :

والتغيرات فى هذا المجال كثيرة جداً ومتنوعة . ومن أهمها :

١ - أخطاء فى الإعراب مثل : فهذا قياساً ومثالا - لا يتركون أحد - لئلا ينظران - كان لسليمان عبداً .

٢ - خلق صيغ صرفية جديدة لا وجود لها فى العربية الكلاسيكية مثل صيغة انفعّل مكان تفعل . ومن أمثلة ذلك « اتجسد » (تجسد) و « اتوكل » و « اترجا » . أو نقل فعل من صيغة إلى صيغة أخرى مثل استعمال الفعل اتّلىّ بدلا من الفعل تولى ، وأورى بدلا من الفعل أرى .

٣ - أخطاء فى باب العدد مثل تسعة ساعات (تسع) . أربعة عشر ليلة (أربع عشرة) : اثنا عشر سنة (اثنتا عشرة) . بعد مائة اثنين وستين (واثنتين) .

٤ - وضع الذى مكان التى مثل : الأموال الذى شرحتها - ثيابه الذى .

٥ - استعمال اسم الإشارة استعمالا خاطئاً مثل : أربع الدراهم هذا .

٦ - تحويل صيغة الأمر فعْل إلى فعّل بقصد تحقيق المماثلة وتوفير الجهد مثل خيّطها بدلا من خيطها .

٧ - إعادة الضمير مجموعاً على غير العاقل الجمع كقول السمنودى فى مقدمة كتابه فى نحو اللغة القبطية : كتب الله المستعملة فى الكنيسة - وماينضاف إليهم ، وكقول مخطوط مكتبة دير القديس مكاريوس : الأعمال كلهم .

ثالثاً : فى مجال المفردات :

استعملت كلمات كثيرة لها أصول أجنبية مختلفة ، كما حرفت كلمات أخرى عن صورتها الأصلية أو معناها الأصلى . فمن النوع الأول :

١ – كلمة « بُرش » وهي تركية ومعناها حصير :

٢ – كلمة « شوشة » وهي موجودة في السريانية بصيغة شُشا ومعناها كُبة قطن .

٣ – كلمة « قلاّية » بمعنى بيت الأسقف أو بيعة النصارى . وهي كلمة لاتينية بمعنى خلوة ، ثم أخذها السريان فصارت قليتا ، ثم أخذها العرب فقالوا قلاّية وجمعوها على قلالي .

٤ – كلمة « روزنامج » بمعنى دفتر اليومية المأخوذة عن الفارسية : « روزنامچه » أو « روزنامه » .

٥ – كلمة « سفتجة » بمعنى إيصال وهي فارسية .

٦ – كلمة « اسبيذاج » المأخوذة من أصل آرامي . ومعناها رماد الرصاص .

٧ – كلمة « بوش » بمعنى عديم الجدوى أو خال . وهي أصلا تركية .

٨ – كلمة « زير » للإناء الفخاري المعروف . وأصلها أكادى ثم انتقلت إلى الآرامية ثم العربية .

٩ – كلمة « سطل » أو « سطل » نحاس . وهي مستعارة من اللاتينية .

١٠ – كلمة « أوسية » بمعنى مزرعة .

ومن النوع الثاني :

١ – كلمة « بعزأ » التي ترجع إلى الأصل العربي بعثق . في اللسان : البعثقة خروج الماء من الحوض . وتبعثق إذا انكسرت منه ناحية ففاض منها .

٢ – كلمة « حيّط » في قولهم « حيط حائطاً » المحرفة عن حوط . ومثله كلمة « المغاير » المحرفة عن المغاور .

٣ - استعمال الكلمة فى معنى جديد مثل كلمة « تملى » التى وردت فى البرديات بمعنى دائماً أو باستمرار ، وهو نفس معناها العامى الحديث .

٤ - قولهم جمادى الآخر بدل الآخرة . ولا زال هذا التعبير شائعاً حتى يومنا هذا .

٥ - استعمال كلمة « دعوة » فى معنى دعوى أو قضية . وقد ورد ذلك فى وثائق البردى .

ومما هو جدير بالذكر ، أن كتاب وثائق البردى كانوا فى بعض الأحيان يستعملون اختصارات فى الكتابة تحل محل كلمة أو أكثر . ومن ذلك :

واعن	اختصار	وأدى عن
أب	اختصار	أرادب
ولب	اختصار	وطالب
به	اختصار	بتاريخه

كذلك مما تجدر الإشارة إليه أن الأخطاء الإملائية فاشية جداً فى هذه البرديات وفى غيرها من كتابات الأقباط . ومن أمثلة ذلك :

١ - كتابة التاء المربوطة تاء مفتوحة كثيراً مثل سنت (سنة) ، امرأت (امرأة) ، ابنت (ابنة) . المسمات (المسماة) .

٢ - كلمة شىء كثيراً ما كتبت « شاى » وهذا من الكتابة الغريبة .

٣ - كتابة ذلك وهذا وهذين بالألف .

٤ - عدم كتابة ألف أمام واو الجماعة .

٥ - كتبت الكلمة بطء هكذا : بطؤ وذلك فى وثائق البردى .

٦ - كتابة الياء ألفاً مثل ادعا - فمتا - كفا - تقوا - المسما - الأخرا »

٧ ــ وصل أكثر من كلمة مثل كتبنى (كتب ف) . وكتبشهادته (وكتب شهادته) . وذلكنى (ذلك فى) . بكلما (بكل ما) .

وهناك إلى جانب ذلك تعبيرات عليها مسحة العامية استعملت فى الوثائق البردية مثل :

١ ــ ويبة واحدة قمح بدلا من : ويبة قمح واحدة أو ويبة واحدة من القمح .

٢ ــ وقد شلناه إلى دكان السمسار بدلا من حملناه أو نقلناه .

٣ ــ وديت لك بدلا من أديت إليك أو أرسلت إليك .

٤ ــ نسيت أذكر لك :

٥ ــ وكانوا الخراسانيين قد جابوا مراكب عدة .

٦ ــ صلينا على حافة البحر فى الغيط .

خاتمة

دراسة مقارنة

مدى التأثير المتبادل بين القبطية والعربية

والآن .. وقبل أن نضع القلم نحب أن نتعرض لقضية أخرى يخلو لكثير من الدارسين أن يخوضوا فيها، وهي قضية تأثير العربية على القبطية . ومقارنته بتأثير القبطية على العربية :

ولن نشتط نحن فى الحكم فنعطى أحكاماً جزافية أو بالجملة . أو نقول عن العربية ماقاله الدكتور صبحى عن القبطية من أنها سبب اختلاف عربية مصر - وبخاصة عاميتها - عن سائر العربيات . وما ادعاه من أن مفردات عامية مصر مليئة بأعداد ضخمة من الكلمات ذات الأصل المصرى القديم أو القبطى بدرجة تثير الدهشة والعجب . ولكننا سنعرض القضية عرض منصف يلتزم الحياد . ويهمه تصوير الحقيقة .

لقد سبق أن تعرضنا بالتفصيل لقضية التأثير القبطى على عربية مصر . وخرجنا بنتيجة محددة هى انحصار هذا التأثير فى جانب المفردات فقط . وحتى فى هذا الجانب وجدنا التأثير ضيقاً لا يتجاوز بضع عشرات من الكلمات . وليس هذا فحسب . فقد وجدنا أن قوائم هذه الكلمات مليئة بألفاظ يونانية تسرب بعضها إلى العربية عن طريق القبطية ، وبعضها عن طريق مباشر ، وبعضها فى بلد آخر غير مصر . وربما كانت ضآلة عدد الكلمات القبطية وحدها الموجودة فى عربية مصر هى السبب المباشر الذى حدا الدكتور جورجى

صبحي وغيره أن يدمجوا في قوائمهم الكلمات القبطية واليونانية حتى يبدو الأثر قوياً . ومعنى هذا أننا لو نحينا جانباً مثل هذه الكلمات ، ورددنا الكلمات ذات الأصل العربي إلى أصولها . واستبعدنا أسماء الأعلام نهائياً ، لانكمش الرقم جداً ، ولم يبق عندنا شيء ذو بال .

ونضيف إلى هذا أن الدراسات اللغوية القبطية لم تترك أي آثار على الدراسات اللغوية العربية في مصر . ويبدو أن الأقباط لم يكن لهم دراسات لغوية قديمة ذات شأن ، وإلا انعكس أثرها على لغويي مصر المتقدمين ، وظهرت ملامحها في كتب النحو واللغة القبطية التي تتابع ظهورها بعد القرن الحادي عشر الميلادي .

فإذا نحن انتقلنا إلى الجانب الآخر من القضية وأردنا أن نسجل آثار العربية على القبطية ، وجدناها كثيرة ومتنوعة كما يلي :

١ — صرح الأستاذ William Worrell المتخصص في الدراسات القبطية بأن الأصوات القبطية قد اختلت تحت ضغط الأصوات العربية ، وأن فكرة كتابة القبطية بحروف عربية (١) قد أدت ولا شك إلى اختفاء الأصوات القبطية التي لم يمكن أن تمثلها حروف عربية لعدم وجودها (٢) . وصرح في موضع آخر بأن الأقباط الذين كانوا يتكلمون العربية ، لابد أن تكون لغتهم القبطية قد تعربت (٣) .

٢ — فحص Worrell بعض الوثائق القبطية المكتوبة بحروف عربية وانتهى إلى نتيجة فحواها أن لغة هذه الوثائق ، يظهر بوضوح كاف وقوعها تحت تأثير العربية لدرجة أنها لا يمكن أن يعتمد عليها في دراسة الأصوات القبطية .

(١) عثر على نص قبطي مكتوب بحروف عربية نشره Galtier عام ١٩٠٦ . انظر W. Worrell في كتابه Coptic Sounds ص ٣ و ٥ و ٦ .

(٢) Coptic Sounds ص ٦ .

(٣) المرجع ص ١٢٢ .

وأن حروف العلة فيها هي تلك الموجودة في العربية (١) :

٣ — نشر Chassiant أوراقاً بردية طبية قبطية كتبت في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين عثر عليها قرب إخميم. وقد لوحظ أنها تشتمل بكثرة على مصطلحات عربية كتبت بحروف قبطية وأحياناً بحروف عربية . كما لوحظ أن كاتب هذه الأوراق كثيراً ما كان يفضل استعمال المصطلح العربي على مقابله القبطي أو اليوناني (٢) :

٤ — قارن « اميلينو » بين وثيقتين قبطيتين. كتبت الأولى في ولاية عبد العزيز بن مروان،والثانية في القرن الثالث عشر الميلادي في عصر الملك الكامل ، وحكم بأن « لغة الوثيقة الأولى لغة العصور المزدهرة وليس فيها ما يشعر بالاضمحلال » . أما الثانية فتدل على أن « اللغة القبطية قد أصابها الفساد حيث أدخلت فيها كلمات عربية . ولما كان المؤلف يخطئ في التعبير فقد كان فهم الوثيقة من الأمور الصعبة(٣) .

٥ — عثر على قصة قبطية مكتوبة في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي. وقد ظهر فيها بوضوح ضعف المؤلف في اللغة القبطية ،واستعماله لكلمات عربية كثيرة . (٤) .

٦ — عثر على قصيدة قبطية تعالج موضوعات دينية تهذيبية وترجع إلى القرن الرابع عشر الميلادي ، وقد كتبت بلهجة قبطية صعيدية . وقد عقب Worrell على القصيدة بقوله « اللغة بوجه عام مفتعلة . وأسوأ من هذا فالأبيات منظومة على الطريقة العربية » (٥).

---

(١) المرجع والصفحة السابقان .

(٢) دائرة المعارف Kibt .

(٣) جاك تاجر ص ٣٠٦ .

(٤) دائرة المعارف Kibt .

(٥) A Short Account ص ٤٧ .

٧ — أما آثار الثقافة العربية على مفكرى الأقباط فكثيرة ومتنوعة . ومن أمثلتها :

(أ) انعكاس الثقافة الإسلامية حتى فى كتابات الأقباط الدينية . وأقرب مثال لذلك كتاب الصفى بن العسال المسمى « بالمجموع الصفوى » الذى يتناول فقه المذهب الأرثوذكسى . وواضح فى هذا الكتاب تأثر المؤلف بالفقه الإسلامى فى تقسيم الكتاب إلى قسمين . عبادات ومعاملات . وفى عناوين أبوابه . وحتى فى تقريره للأحكام . وإليكم النص التالى الذى يوضح هذه الفكرة : وهو عن آداب القاضى : ويساوى بين الخصمين فى الدخول والجلوس والإقبال عليهما والإنصات إليهما والمخاطبة لهما والعدل فى الحكم لهما أو عليهما . ولا يسارر (كذا) أحدهما . ولا يلقنه حجة ، ولا يختصمه ، ولا يحتج له ولو كان قوياً وضعيفاً ومشروفاً وشريفاً حتى لا يطمع شريف فى حيفه ولا ييأس ضعيف من عدله » (٤) .

(ب) تأثر النحاة الأقباط فى كتبهم النحوية بمجهودات العرب فى ذلك . وأنت تخرج بهذه النتيجة بعد تصفحك لكتب النحو القبطية المتقدمة . حيث تجد تشابهاً عجيباً بين المنهجين . فالكلمة عند ابن كاتب قيصر تنقسم إلى اسم وفعل وحرف . والاسم هو الذى يخبر به أو يخبر عنه ، وهو ما دخله أحد أدوات التعريف أو التنكير أو التذكير أو التأنيث والجمع وما أشبه ذلك .. والحرف مادل على معنى فى غيره ولم يستقل بنفسه . ولا نخبر به ولا يخبر عنه ... ومنها الحروف التى تدخل على المبتدأ أو الخبر وهى إن وأخواتها ... الخ . هل تصدق أنك تقرأ فى كتاب يعالج نحو اللغة القبطية ؟

ولم يكن هذا سبيل ابن كاتب قيصر وحده ، بل كان سبيل النحاة جميعاً

---

(١) المجموع الصفوى ص ٣٦٤ .

حتى ضاق بهم مؤلف قبطى آخر اسمه الشيخ الوجيه القليوبى ، فقال فى مقدمة كتابه المسمى «بالكفاية»: « وقد وضع فى ذلك (النحو القبطى) مقدمات . إلا أن المفسرين لغلبة أحكام تصريف اللغة العربية عليهم قاسوا أكثر أحكام القبطى عليها . وليس الأمر كذلك : بل من شرط المخرج من لغة إلى أخرى أن يجرد ذهنه عن اللغة الغالبة . ويذهل عنها . ثم يذوق اللغة المخرجة . ويستحضر جميع أجزائها ، ويستقرى مواضع استعمال أدواتها » .

٨ — وأخيراً يكفينا فى مجال الموازنة أن نذكر القارئ بما سبق أن قررناه من هزائم اللغة القبطية المتكررة أمام هجمات العربية، وفقدها قلاعها واحدة بعدالأخرى . فما أن جاء القرن العاشر الميلادى حتى كانت قد اهتز عرشها وثلت أركانها وأصبحت لغة ميتة أو شبه ميتة . وليس يفوق الموت شىء آخر . وقد سبق أن ناقشنا مراحل احتضار اللغة القبطية وأقمنا الأدلة على موتها المبكر . ونضيف الآن ما يأتى إلى ما سبق :

(أ) أن كتب النحو القبطى المؤلفة بلغة عربية بدأت تظهر فى القرن الحادى عشر الميلادى . وقد بدأها أثناسيوس أسقف مدينة قوص . وتلاه مؤلفون آخرون مثل ابن كاتب قيصر والشيخ الوجيه القليوبى والمؤتمن ابن العسال وابن الدهيرى والسمنودى. وواضح أنها جميعاً وضعت لخدمة القارئ الذى يعرف العربية ويريد أن يتعلم القبطية .ولذا فهى تتخذ المثال العربى أصلا ثم تشير إلى مقابله فى القبطية .

(ب) عثر فى بعض الأديرة على مخطوطات قبطية قديمة مليئة بحواش وإضافات باللغة العربية مثبتةعلى جوانب المخطوطات . ومعنى هذا أن معظم الرهبان ورجال الدين كانوا قد تعلموا القبطية كلغة ميتة أو لغة ثانية ،وأنهم كانوا يفضلون إثبات تعليقاتهم بلغتهم الأولى، وهى العربية .

(جـ) من الثابت قطعاً أنه فى أوائل القرن العاشر تمت ترجمة « سيرة جون الصغير » إلى السريانية من النص العربى وليس من الأصل القبطى .

(د) أنه بجرد مكتبة دير القديس مكاريوس لوحظ أنها فقيرة جداً إلى مخطوطات تنتمى إلى القرون ما بين الحادى عشر والثالث عشر .

وقد فسر المستشرق H. White فى مقدمة كتابه : « The Monasteries of the Wadi'N Natrun » ذلك بقوله : « هذا التدهور يعود إلى حد ما إلى زهد الناس فى قراءة الأدب الدينى ، وإلى حد أكبر إلى أن اللغة القبطية كلغة حية كانت قد وقعت فى هذه الفترة فريسة بين مخالب اللغة العربية » .

(هـ) كذلك لوحظ أن القسم العربى من المكتبة كبير جداً مثل القسم القبطى أو أكبر منه. وقد رجح White أن يكون رهبان الدير قد فضلوا فى قراءاتهم القراءة باللغة العربية ، وإن كانوا قد احتفظوا بالقبطية فى قداساتهم الكنسية .

(و) عثر ضمن مخطوطات مكتبة الدير السابق الإشارة إليه على معاجم أو قوائم بالألفاظ هدفها مد يد العون لقارئ العهد الجديد باللغة القبطية .

(ز) عثر فى نفس المكتبة على بقايا لعشر قوائم تعطى المقابلات العربية للكلمات القبطية (أو اليونانية) المتعلقة بالكتاب المقدس والطقوس الدينية ، يرجع معظمها إلى القرن الثالث عشر الميلادى . والملاحظ أنها كلها معاجم قبطية عربية ، ولا يوجد من بينها معاجم عربية قبطية (١) .

(ح) أن نشاط اللغويين الأقباط المتقدمين أمثال إخوة العسال وابن كبر

---

(١) انظر ص ٢٢٢ The Monasteries of the Wadi'N Natrun, Part I.

لم يتم بهدف تيسير تعليم الشعب اللغة ، بل بهدف تزويده بمساعد يعينه على فهم لغة القداس وطقوس العبادة .

(ط) أن آخر محاولة بذلت لإحياء اللهجة القبطية الصعيدية تمت فى القرن العاشر الميلادى حيث ظهرت مؤلفات كثيرة اشتملت على نماذج كلاسيكية للأدب الصعيدى والإنجيل وسير القديسين والشعائر الدينية . ثم لم تتم محاولات بعد ذلك .

فلعل القارئ يكون قد تبين الآن بنفسه خطأ ما ردده الدكتور صبحى عن شدة تأثير القبطية على العربية وما ادعاه من أن آثار القبطية فى العربية أكثر من آثار العربية فى القبطية . فقد ظهر أن لاوجه للمقارنة مطلقاً ، بالإضافة إلى تمكن اللغة العربية من القضاء على القبطية . وليس بعد الموت أثر يفوقه .

ولن نجد ما نختم به بحثنا خيراً من قول الدكتور ولسن بشاى : « ومهما يقل عن آثار اللغة القبطية التى تركتها على اللغة العربية عندما كانت اللغتان مستعملتين جنباً إلى جنب . وكانت اللغة القبطية قوية . وذلك خلال المرحلة الأولى من الصراع . فإن هذه الآثار لابد وأن تكون قد زالت أو تلاشت تماماً حينما اختفت اللغة القبطية من الوجود كلغة متكلمة وحلت محلها اللغة العربية » .

. . .

وبعد : فإن قصة اللغة العربية واستقرارها فى مصر من القصص الفريدة التى لا تتكرر كثيراً فى التاريخ . ويكفى أن نعلم أن مصر قد تتابع عليها حكام أجانب على امتداد تاريخها الطويل من هكسوس وآشوريين وفارسيين ويونان ورومان دون أن يتمكن أحد منهم من فرض لغته على مصر . والقضاء

على اللغة الوطنية المصرية تماماً . إلى أن جاء العرب فتمكنوا من فرض لغتهم وإحلالها محل القبطية . وما أن تمكنت اللغة العربية فى مصر حتى رسخت رسوخ الجبال . وقاومت هجمات الاستعمار المتنوعة . واستطاعت أن تصمد أمام تيار الغزو الأجنبى ، سواء كان تركيا أو فرنسيا أو إنجليزياً ، وظلت — ولن تزال — لغة مصر رائدة القومية العربية .

اهم المراجع

أولا : المراجع العربيـــة

١ — أحسن التقاسيم : المقدسى ،« بريل »١٩٠٦ .

٢ — أخبار سيبويه المصرى ؛ ابن زولاق ، ط أولى ١٩٣٣ .

٣ — أصول الكلمات العامية ، حسن توفيق ، مصر ١٨٩٦ .

٤ — أقباط ومسلمون ؛ دكتور جاك تاجر ، مصر ١٩٥١ .

٥ — الأدب العربى فى مصر ، دكتور عبد الرزاق حميدة ، مصر ١٩٥١.

٦ — الأدب القبطى قديماً وحديثاً ، محمد سيد كيلانى ، ط أولى ١٩٦٢ .

٧ — الأساس المتين فى ضبط نطق لغة المصريين : عبد المسيح المسعودى ، ط مصر .

٨ — البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، المقريزى ، تحقيق الدكتور عبد المجيد عابدين ، ط أولى ١٩٦١ .

٩ — البيان والتبين للجاحظ — تحقيق عبد السلام هارون ط أولى .

١٠ — تاريخ مصر الإسلامية الجزء الأول للدكتور جمال الدين الشيال ط دار المعارف ١٩٦٧ .

١١ — التطور اللغوى ، دكتور عبد الرحمن أيوب .

١٢ — حضارة مصر فى العصر القبطى ،دكتور مراد كامل ١٩٦٨ .

١٣ — الخطط ، المقريزى ، بولاق ١٢٧٠ هـ .

١٤ — الدخيل فى اللغة العربية ، دكتور فؤاد حسنين ، مجلة كلية الآداب :
١٥ — الرسالة ، الإمام الشافعى : تحقيق أحمد شاكر : ط أولى ١٩٤٠ .
١٦ — السلم الكبير ، ابن كبر ، مخطوطة بالمكتبة التيمورية .
١٧ — السلم المقفى : ابن العسال ، مخطوطة بالمكتبة التيمورية .
١٨ — العربية ، يوهان فوك، ترجمة دكتور عبدالحليم النجار ، القاهرة١٩٥١.
١٩ — اللغة القبطية . جرجس فليوثاؤس عوض ، مصر ١٩١٦ .
٢٠ — المتوكلى ، السيوطى ، دمشق ١٣٤٨ هـ .
٢١ — المجلة القبطية ، جرجس فيلوثاؤس عوض .
٢٢ — المجموع الصفوى : ابن العسال ، تحقيق جرجس فيلوثاؤس عوض . ط أولى :
٢٣ — المحاضرة الأولى عن الأوراق البردية العربية : دكتور أدولف جروهمان دار الكتب ١٩٣٠ .
٢٤ — المحكم فى أصول الكلمات العامية ، دكتور أحمد عيسى. ط أولى١٩٣٩.
٢٥ — المقدمة فى نحو اللغة القبطية، الوجيه القليوبى ، مخطوطة بالمكتبة التيمورية.
٢٦ — المكافأة ، ابن الداية ، ط أولى ١٩١٤ .
٢٧ — المنجد فى اللغة لكراع النمل ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤٩٠ لغة .
٢٨ — النثر الفنى فى القرن الرابع ، دكتور زكى مبارك ، ط أولى ١٩٣٤ .
٢٩ — النجوم الزاهرة ، ابن تغرى بردى ، ط دار الكتب .
٣٠ — النحو الوافى ، عباس حسن ، ط المعارف .
٣١ — الولاة والقضاة ، الكندى ، بيروت ١٩٠٨ .

٣٢ – أهل الذمة في الاسلام ، أ . س . ترتون ، ترجمة حسن حبشي ، دار الفكر ١٩٤٩ .
٣٣ – بقايا اللهجات العربية . دكتور أنوليتمان ، مجلة كلية الآداب . مايو ١٩٤٨ .
٣٤ – تاريخ ابن الراهب ، بيروت ١٩٠٣ .
٣٥ – تاريخ الأقباط . زكي شنودة ط أولى ١٩٦٢ .
٣٦ – تاريخ الأمة القبطية . لجنة التاريخ القبطي ، ط ثانية ١٩٢٢ .
٣٧ – تاريخ الأمة القبطية ، أ . ل . بتشر ، ترجمة اسكندر تادرس ، المجالة ١٩٠١ .
٣٨ – تاريخ الشيخ أبي صالح الأرمني ، أكسفورد ١٨٩٤ .
٣٩ – تاريخ العرب قبل الإسلام ، دكتور جواد علي ، ط المجمع العلمي العراقي .
٤٠ – تاريخ اللغة العربية . جورجي زيدان . القاهرة ١٩٠٤ .
٤١ – تاريخ يحيي بن سعيد الأنطاكي . ١٩٢٤ .
٤٢ – تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية . طوبيا العنيسي . ط ثانية ١٩٣٢
٤٣ – التكملة فيما تلحن فيه العامة . الجواليقي . ملحق بالف القماط .
٤٤ – تهذيب الألفاظ العامية . محمد علي الدسوقي ، ١٩١٣ .
٤٥ – حسن المحاضرة . السيوطي . القاهرة ١٣٢١ هـ .
٤٦ – حياة النثر في مصر . دكتور بهي الدين محمد زيان ، رسالة دكتوراه بكلية الآداب ، جامعة القاهرة .
٤٧ – دلالة الألفاظ العربية ، دكتور مراد كامل ، معهد الدراسات العربية ١٩٦٣ .

٤٨ — رسالة الكلمات الغير العربية . حمزة فتح الله . بولاق ١٩٠٢ .
٤٩ — سير الآباء البطاركة . سويرس بن المقفع . باريس ١٩٠٧ وما بعدها.
٥٠ — صبح الأعشى ، القلقشندى . ط دار الكتب .
٥١ — فتح العرب لمصر . ألفرد بتلر . ترجمة محمد فريد أبو حديد . دار الكتب ١٣٥١ ه .
٥٢ — فى الأدب المصرى الإسلامى . دكتور محمد كامل حسين .
٥٣ — فى اللهجات العربية . دكتور عبد الحليم النجار . مجلة كلية الآداب ، مايو ١٩٥٣ .
٥٤ — قبائل العرب فى مصر . أحمد لطفى السيد . ط أولى .
٥٥ — قواعد اللغة المصرية القبطية : دكتور جورجى صبحى . ١٩٢٥ .
٥٦ — قواعد اللغة المصرية فى عصرها الذهبى : دكتور عبد المحسن بكير : ط أولى .
٥٧ — كتاب البرهان : سعيد بن بطريق : ١٩٦٠ .
٥٨ — كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق : سعيد بن بطريق : بيروت ١٩٠٥ .
٥٩ — لحن العوام ، الزبيدى . تحقيق دكتور رمضان عبد التواب . ط أولى ١٩٦٤ .
٦٠ — لسان العرب . ابن منظور . ط بيروت .
٦١ — لف القماط . محمد صديق خان . ط الهند .
٦٢ — المجتمعات الإسلامية فى القرن الأول للدكتور شكرى فيصل ١٩٥٢ .
٦٣ — مجموعة الألفاظ القبطية المتداولة : أقلوديوس لبيب : ط أولى .
٦٤ — مصر العربية الإسلامية للدكتور على حسنى الخربوطلى : الأنجلو ١٩٦٣

٦٥ – مصر فى فجر الإسلام . دكتورة سيدة إسماعيل الكاشف . ط دار الفكر ١٩٤٧ .

٦٦ – مقدمة ابن خلدون . طبع المطبعة الشرقية .

٦٧ مقدمة فى نحو اللغة القبطية . ابن كاتب قيصر . مخطوطة بالمكتبة التيمورية .

٦٨ – مقدمة فى نحو اللغة القبطية . ابن العسال . مخطوطة بالمكتبة التيمورية.

٦٩ – مقدمة فى نحو اللغة القبطية ، ابن الدهيرى . مخطوطة بالمكتبة التيمورية.

٧٠ - مقدمة فى نحو اللغة القبطية . السمنودى . مخطوطة بالمكتبة التيمورية.

٧١ – من أسرار اللغة . دكتور إبراهيم أنيس . الأنجلو . ط ثانية .

٧٢ – من أصول اللهجات العربية فى السودان . دكتور عبد المجيد عابدين . ط أولى ١٩٦٦ .

٧٣ – نظرات فى الصرف العربى . دكتور كمال بشر . حلقة البحث العلمى بكلية دار العلوم .

ثانيا ــ المراجع الأجنبية

1 — A History of Egypt, Lane Poole, 1925.

2 — An Introductory Coptic Grammar, Prof. Plumley, 1948

3 — Arabic Linguistic Studies in Egypt, A.M. Omar, Ph. D. Cambridge.

4 — Arabic Papyri, Adolf Grohmann, Cairo, 1934.

5 — A Short Account of the Copts, William Worrell, U.S.A., 1945.

6 — Colloquial Arabic, De Lacy O'Leary, London, 1963.

7 — Common Words in the Spoken Arabic of Egypt, of Greek or Coptic Origin, G. Sobhy, Cairo, 1950.

8 — Conversion and the Poll-Tax in Early Islam, D. C. Dennett, Cambridge, 1950.

9 — Coptic Sounds, William Worrell, U.S.A., 1934

10 — Coptic Texts from Deir el-Bala'izah in Upper Egypt, Paul E. Kahle, Oxford, 1954.

11 — Coptic Texts, William Worrell, U.S.A., 1942.

12 — Characteristics of the Hamitic Languages, O'Leary.

13 — Elements of the Science of Language, Irach J. Sorabji, Calcutta, 1932.

14 — Encyclopaedia Americana, Coptic Language and Literature.

15 — Encyclopaedia Britannica, Coptic Church and Coptic Language.

16 — Encyclopaedia of Islam, Kibt.